

معارك إسلامية

الأستاذ
رشاد أحمد أبو جودة
مشرف مركزي متقاعد للاجتماعيات - وكالة الفوث
جامعة القدس المفتوحة - الخليل

الدكتور
محي الدين عبد حسين عرار
جامعة القدس - القدس



للنشر والتوزيع



لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ



للنشر والتوزيع

وَأَعِظُوا اللَّهَ
عَلَّامُ الْغُيُوبِ
وَلَا تَفْرُقُوا

معارك
إسلامية

معارك إسلامية

المكتوب

محي الدين عبد حسين عرار

جامعة القدس - القدس

الأستاذ

رشاد أحمد أبو جودة

مشرف مركزي متقاعد للاجتماعيات - وكالة الفوث

جامعة القدس المفتوحة - الخليل

الطبعة الأولى

2016م - 1437هـ



رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2014/9/4212)

239

عرار، محي الدين عبدحسين
معارك إسلامية / محي الدين عبدحسين عرار. - عمان: دار الإصدار
العلمي للنشر والتوزيع، 2014

() ص

ر.ا.: 2014/9/4212

الواصفات: /الجهاد//المعارك//التاريخ الإسلامي/

• يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

جميع حقوق الطبع محفوظة

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله
بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر

عمان - الأردن

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

الطبعة العربية الأولى

2016م - 1437هـ



الأردن - عمان - وسط البلد - شارع الملك حسين - مجمع القديس التماري
هاتف: +96264646208 - فاكس: +96264646470
الأردن - عمان - مرج الحمام - شارع الكويكة - مجمع كلية العلوم
هاتف: +96265713906 - فاكس: +96265713907

جوال: 797896091 - 00962

www.al-esar.com - info@al-esar.com

دار الإصدار العلمي

(ردمك) ISBN 978-9957-98-054-2

الإهداء

**إلى كل عربي آمن بوحدة الأمة العربية وعمل من أجلها،
وضعى ويضعى بكل غال ورخيص في سبيل تحقيقها**

**إلى كل عربي استعذب ويستعذب الموت في سبيل استعادة أمجاد أمته وإعادة
بناء دولته العربية الكبرى من المحيط إلى الخليج**

**إلى كل عربي ناضل ويناضل لتخليص أمته من الاستعباد والاستغلال
والانهلال لبناء مجتمع الكفاية والعدل، مجتمع الرخاء والازدهار**

إلى هؤلاء جميعا أهدي كتابي هذا

المحتويات

الصفحة	الموضوع
11	المقدمة.....
19	غزوة بدر.....
21	غزوة أحد.....
33	معركة دومة الجندل.....
39	غزوة الأحزاب (الخندق).....
51	غزوة بني قريظة.....
55	غزوة خيبر.....
71	فتح مكة.....
75	غزوة حنين / شوال 8هـ.....
78	معركة اليمامة.....
81	معركة الولجة.....
89	معركة مرج الصفر.....
91	معركة القادسية (معركة غيرت مجرى التاريخ).....
95	معركة أجنادين (الطريق إلى فتح بلاد الشام).....
102	معركة اليرموك (وانحسار دولة الروم).....
109	معركة طائوس.....
114	بهرسير (الطريق إلى المدائن).....
117	معركة ذات الصواري (أول معركة بحرية في تاريخ الإسلام).....
121	غزوة مؤتة.....
125	معركة نهاوند (فتح الفتوح).....
129	معركة ذات السلاسل.....
135	معركة البويب (بداية فتح العراق).....
140	معركة الجسر.....
145	معركة عين تمر (أسرع هزيمة في التاريخ).....

151	معركة النمارق.....
155	موقعة النهروان.....
156	موقعة الجمل.....
164	معركة صفين.....
166	معركة كربلاء.....
178	موقعة الحرة (28 من ذي الحجة 63هـ / 29 أغسطس 683م).....
181	معركة طلاس (نهاية النفوذ الصيني في آسيا الصغرى).....
185	فتح عمورية (السيف أصدق).....
190	ملاذكرد (الطريق إلى القسطنطينية).....
195	حطين وعوامل النصر المؤزر.....
206	معركة الزلاقة.....
212	ملحمة القصر الكبير.....
217	معركة عين جالوت.....
223	معركة بلاط الشهداء.....
230	فتح بلجراد (صفحة عثمانية مشرقة).....
235	الجزيرة الخضراء (في أحضان العثمانيين).....
246	معركة كورسيكا البحرية (7 رمضان 960هـ / 7 أغسطس 1553م) ..
248	معركة أم دويكرات.....
250	ليبانتو (هزيمة وعزيمة).....
257	فتح الهند.....
265	معركة أنقرة.....
267	معركة الأراك.....
272	سقوط بلنسية (ردة الحاكم والأرض).....
279	إشبيلية (من الإسلام إلى المسيحية).....
286	معركة أقليش أو موقعة الكونتات السبعة 16 شوال 501هـ / 29 مايو 1108م.....

288 جالدرين (الطريق إلى المشرق الاسلامي)
293 معركة الريدانية
297 معركة نصيبين (ضربات الخيانة لدولة الخلافة)
301 معركة جلولا
303 ميسلون (معركة الشرف العسكري والكرامة)
308 معركة ساحة الدم (النصر حليف الوحدة)
314 وادي المخازن (معركة الملوك الثلاثة)
319 معركة العقاب
324 معركة كوسوفا (حملة صليبية سادسة على العثمانيين)
329 فتح القسطنطينية (بشارة نبوية)
338 معركة حصن بابلين 7 ربيع الآخر 20 هـ / 6 أبريل 641م
340 سقوط سرقسطة (في أول رمضان)
342 سقوط دولة الإسلام في الهند
345 دولة الخلافة العثمانية (تحرير طرابلس)
347 سقوط شلب (حامية الغرب الأندلسي)
350 معركة كابل (وطرد الامبراطورية البريطانية)
353 معركة البيرة الأندلسية
358 معركة حصن المقورة
359 معركة نوارين البحرية
360 معركة كتندة الأندلسية
361 معركة شبش
362 معركة المنصورة 4 من ذي القعدة 647 هـ / 8 فبراير 1250م
364 معركة فارسكور وفشل الحملة الصليبية السابعة ونهاية دولة وقيام دولة
370 فتح عكا وعودتها إلى أحضان المسلمين

	حصار العثمانيين لمدينة الكوت وانتصار عظيم لقوات رجل أوروبا
374	المريض.....
380	معركة القدس.....
382	معركة رأس العش.....
385	معركة شيكان (المعجزة الحربية السودانية).....
387	احتلال الجزائر (الأسباب والعبر).....
392	فتح كاشغر.....
401	فتح سمرقند.....
405	معركة سينوب.....
415	معركة أنوال.....
422	سقوط بغداد (عاصمة الخلافة العباسية).....
427	معركة لهري.....
433	معركة القسطل.....
437	معركة التل.....
442	معركة الكرامة.....
467	معركة أكتوير المجيدة.....
481	المراجع.....

المقدمة

كانت نهاية القرن السادس للميلاد فترة أزمة خطيرة في تاريخ العرب، فقد سادهم التمزق وعمتهم الفوضى، واشتد التناقض الاجتماعي في المدن، وغلبت البداوة على الحاضرة، وباتت بلادهم هدف أطماع الساسانيين في الشرق وبيزنطة في الغرب وساحة صراع للقوتين أدى إلى زوال كياناتهم في العراق والشام واليمن.

وبدت في الجزيرة بوادر وعي، وظهرت في مجتمعاتهم وأسواقهم الأدبية انعكاسات تتلمس حياة جديدة، وتشير إلى ظهور لغة أدبية مشتركة.

وفي وسط الأخطار المحدقة والفوضى بزغ فجر الدعوة الإسلامية في مكة ليحدث تغيرا شاملا في حياة العرب.

انطلق العرب بالاسلام، إذ تهيأت لهم وحدة العقيدة، ووحدة القيادة، ووحدة الأهداف، وتدافعت راياتهم لتحرير الجزيرة من التبعية والفوضى ولتشدها إلى كيان سياسي واحد، فلما تم ذلك بانتهاء الردة، انطلقت جموعهم إلى خارج الجزيرة في حركة فتوح لم تقف إلا في أواسط آسيا شرقا وجبال البيرنة غربا.

وبدت الفتوحات العربية الإسلامية حدثا فذا في التاريخ، وذهب الباحثون يتلمسون التفاسير، فمنهم من اعتبر الفتوح موجة سامية ناشئة عن الجفاف المتزايد للجزيرة، ومنهم من اعتبرها ظاهرة للصراع بين البادية والحاضرة، ومنهم من أعطاها تفسيراً مادياً صرفاً.

وليس هذا محل مناقشة هذه التفاسير، ويكفي أن نبين أن الاسلام وحد العرب فكريا وسياسيا، وفرض عليهم الجهاد، ومع أن غنى البلاد المجاورة كان له أثره، إلا أن القوة الدافعة كانت للرسالة الجديدة وما أوجدته من وعي ووحدة، كما أن خطر القوى المجاورة، فارسية وبيزنطية، على الحركة الجديدة كان له أثره الكبير. ولنتذكر بعد هذا أن تنظيم الأمة خطط على أساس تعبئتها للجهاد وتمثل

ذلك ي تكوين ديوان الجند، وفي العطاء والضرائب، وفي التنظيم الاداري، وفي بناء المدن الجديدة، مثل الكوفة والبصرة والفسطاط والقيروان. لقد حصلت تعبئة فكرية وبشرية واقتصادية في سبيل الجهاد فكانت قاعدة التوسع السريع.

ومن ناحية أخرى لم تكن الفتوحات مجرد غزوات بسيطة، بل كانت تسير وفق تخطيط منظم يتضح من دراسة سير الفتوحات. فالحملات الأولى التي وجهت إلى العراق والشام اقتصر نطاقها على الأراضي المجاورة للصحراء -معقل العرب- حيث تعيش مجموعات عربية كبيرة. أراد العرب بذلك أن يوجدوا لأنفسهم مراكز يندفعون منها في توسعهم المقبل. ويتبين هذا في فعاليات خالد بن الوليد في العراق: "إذ احتل الأبله ودار حول وادي الفرات ليحتل الحيرة والأنبار على حافة الصحراء. ويصدق هذا على فعاليات الفرق الثلاث التي أرسلت إلى الشام سنة 633م".

وكانت القوى التي أرسلت إلى العراق والشام صغيرة، فحسبها الساسانيون والبيزنطيون غزوات بدوية، ثم انتبهوا لخطرهما، فبدأوا باتخاذ مواقف أكثر جدية، وعلى اثر ذلك بدأت تتوارد قوات إضافية من المدينة، وبدأ الصراع الجدي مع البيزنطيين والساسانيين.

واتجه الاهتمام إلى الشام أولاً لأنها أوثق روابط بالحجاز، ولأهميتها الاستراتيجية، فبدأت العمليات القوية المنظمة فيها، وبهذا تبدأ المرحلة الثانية. وقعت في الشام سلسلة معارك، وكانت المعركة الحاسمة في اليرموك في 20 آب سنة 636م، وبها تقرر مصير الشام، وتم الاستيلاء على بقية البلاد خلال سنتين. ويلاحظ في هذه المرحلة تضافر القوى العربية ووضعها تحت قيادة عليا واحدة، كما أبدى أهلون ميلا للعرب.

للقمة

وبعد اليرموك بدأت المرحلة الثانية في العراق، بإرسال إمدادات جديدة، وتعيين قيادة عليا لجبهة العراق، وكانت القادسية في حزيران سنة 637م معركة فاصلة أعقبها فتح العراق، كما كانت جلولا آخر معركة مهمة في نهاية سنة 637م، وبها ختم مصير العراق. وبهذا انتهت المرحلة الثانية.

ثم بدأت المرحلة الثالثة، ولم تكن استمرارا للفتوح وحسب، بل كانت ضرورة استراتيجية، وربما كانت ضرورة اقتصادية. فقد كانت القوة الساسانية تهدد العراق، وكانت الاسكندرية في مصر قاعدة للأسطول البيزنطي، وخطرا مباشرا على سوريا وربما على الحجاز، وكانت حيوية لتموين الحجاز. لذا فالروايات المعروفة التي تبين أن الحملة على مصر كادت أن توقف غير مقبولة.

وبدأت الهجرات القبلية الواسعة إلى الهلال الخصيب بد القادسية واليرموك، وأنشأ العرب الكوفة والبصرة لتكون دور هجرة ومراكز للقوات العربية ومحطات للتوسع شرقا.

وكانت حركة الفتوح في ايران صادرة عن الكوفة والبصرة، كما اشتركت قوات من البحرين - وهي القاعدة الثالثة - في فتح فارس.

أما الحملة على مصر فكانت استمرارا للحملة على سوريا، ولم يبد الأهلون أية مقاومة للعرب باستثناء حالة واحدة هي الاسكندرية ذات التقاليد الهلنية، وكانت خطة الحملة على مصر على نسق الحالات السابقة، تبدأ بجيش صغير، ثم تتوالى النجديات حسب الحاجة، هذا إضافة إلى وجود أسطول يسند القوات البرية ويحميها. وفي مصر بنيت الفسطاط "الخيمة" لتكون مركزا عسكريا وإداريا، وصارت قاعدة لاندفاع الفتوح غربا. وكانت خططها مثل خطط الكوفة والبصرة.

أما الحملات التالية غربا فكانت لحماية الفتوحات السابقة. فتح عمرو برقة سنة 643م، وتوسع عبد الله بن سعد إلى طرابلس، وثبتت مشكلة الحدود الجنوبية بمعاهدة مع النوبة في نيسان 652م، ووجه عناية خاصة للأسطول الذي بدأ به عمرو لحماية السواحل البحرية.

ولما كان الأسطول البيزنطي يشكل خطرا على العرب، فقد اهتم أمير الشام ببناء الأسطول، وبدأ يلتفت إلى الجزر المجاورة، وكان الاصطدام بالبيزنطيين حاميا، وفي سنة 655م وقعت معركة ذات الصواري بين الأسطول البيزنطي والأسطول العربي، وكانت نصرا للعرب يوازي انتصار اليرموك.

ثم توقفت هذه الموجة من الفتوح أثناء الفتنة، ولم تبدأ الموجة التالية إلا في الفترة الأموية، فأتسعت الفتوح إلى أواسط آسيا وإلى صقلية وجنوب فرنسا، وجابه العرب في كل الجبهات حدودا مضطربة وجيرانا خطرين، فهناك الشعوب الإيرانية- التركية على الحدود الشرقية، والبيزنطيون إلى الشمال، والفرنج إلى الغرب، وتحولت هذه الحدود إلى ساحات حملات محلية وصراع متصل.

إن تاريخ الفتوح هو تاريخ انطلاق الأمة العربية، بعد أن توحدت فكريا وعقائديا وسياسيا، لتحمل رسالة إنسانية إلى أقاصي المعمورة، وهي فتوح كشفت الموجة الغربية وهاجمتها في عقر قواعدها.

أما الحروب الصليبية، فهي تعبير عن انعكاس الموجة بهجوم الغرب الأوروبي على البلاد العربية بدعوة من بيزنطة المهددة، وبحجة الدفاع عن الأراضي المقدسة وإنقاذها من المسلمين.

رفع الصليبيون راية الجهاد، لتظلل الدوافع الحقيقية، إقتصادية متمثلة في السيطرة على طرق التجارة وفح أسواق الشرق، وسياسية في التوسع الاستعماري وفي إيجاد ساحة مغامرات بعد أن ضاق الجو الاقطاعي بالمغامرين، ودينية لضرب الاسلام وممثليه.

اللقمة

وكانت الظروف مواتية للغرب، تتمثل في ضعف الخلافة وتسلط السلاجقة حديثي العهد بالاسلام على كثير من بلادها، هذا إضافة إلى انقساماته السريعة وظهور دويلات وإمارات محل الكيان السياسي الموحد، وضعف الامكانيات العسكرية وتدهور البحرية العربية.

وإن تحدثنا عن التفكير السياسي، فإن التفكير الاجتماعي لم يكن أقل خطورة، فقد ظهرت الفتن المذهبية، واشتد التفاوت الاجتماعي وما يصحبه من صراع، واتسعت الحركات العامة، ونشطت المجموعات القبلية على حساب المجموعات الحضرية.

وحين جاءت الحملة الصليبية الأولى وجدت هذه التجزئة وغلبة مطامع الأمراء وشدة تنافسهم، وضعف الوعي وعدم تقدير الخطر الخارجي، فتيسر للصليبيين تكوين إماراتهم وفرض سلطانهم على أجزاء من فلسطين. ولم يكن انتصار الغرب ناشئا عن تفوق حضاري أو عن تفوق أنواع السلاح، فالعكس هو الأصح حتى اعتبرت الحروب الصليبية آخر الموجات البرية بنظر البعض، بل جاء التفوق نتيجة ركود وتجزئة في الشرق العربي.

تكونت الامارة الصليبية على الساحل، وحاول الغرب تشجيع الهجرة إليها لتثبيت كياناتها، كما حاول أن يحافظ على شريانها الحياتي وهو طرق المواصلات البحرية. وحاول الشرق أيضا أن يجعل من الامارات الصليبية محطات لتوسيع سيطرته وتعزيزها في حملات صليبية متتالية، وقاعدة لضرب العرب والمسلمين.

وكانت قسوة الصليبيين تجاه المسلمين، وما حملوه من روح عدائية استعمارية من أسباب رد الفعل، وإثارة فكرة الجهاد والاستشهاد بين الناس، كما أن الأخطار المتزايدة أدت إلى محاولة الزنكيين ثم الأيوبيين رد العدوان وضرب الصليبيين.

وكان الاتجاه لتوحيد القوى العربية الاسلامية أول عمل جدي لمجابهة الصليبيين، وبداية النهاية لاستعمارهم، وحين تم جمع الجزيرة وشمالى سوريا ومصر ضمن دولة واحدة تأكد التفوق الاسلامي.

ولا بد أن نلاحظ أن الوحدة السياسية هذه رافقتها وحدة فكرية بدت بوادرها من قبل انتهاء سلطان الفاطميين ونمت بعد زواله.

ولكن الخطر الصليبي استمر ما دام الطريق البحري بأيديهم، وما دامت الإمدادات متصلة من الغرب، فلما قطع هذا الشريان تم التفوق.

ولم تكن الحروب الصليبية حدثا مفردا، بل كانت حلقة في سلسلة الصراع الطويل بين الشرق والغرب، وقد تلاها تقدم العثمانيين غربا وسيطرتهم على البحر الأبيض وبلوغهم أبواب أثينا.

وعاد الغرب من جديد في مطلع القرن العشرين إلى غزو استعماري واضح، ومع أنه لم يرفع راية الصليب، إلا أن الادعاءات الدينية وذكريات الغزو الصليبي كانت قائمة.

وأوجد الاستعمار إسرائيل وفرضها بالقوة تحت ستار من ادعاءات دينية وإنسانية لتكون طليعة له، وقاعدة إستراتيجية وسط القارات الثلاث، لحماية مصالحه واستغلاله الاقتصادي، ولضرب القومية العربية الفتية، كما أرادها أن تكون مركزا يغزو منه بشكله الجديد الشرق العربي وأفريقيا.

معارك إسلامية



هزوة بدر

17 رمضان 2هـ / 15 مارس 624م

نزل الإذن للمسلمين بالقتال بعد الهجرة، وذلك لحماية الدولة الإسلامية الوليدة من محاولات مشركي قريش الدؤوبة لتقويض هذه الدولة، وقد اتبع الرسول سياسة حكيمة في القتال تعتمد على إضعاف القوة الاقتصادية لقريش بالإغارة على القوافل التجارية المتجهة إلى الشام، وانطلقت شرارة السرايا القتالية في رمضان سنة 1هـ.

وقد نقلت الاستخبارات النبوية خبر قافلة تجارية ضخمة لقريش يقودها أبو سفيان بن حرب، فحاول المسلمون إدراكها قبل أن تذهب للشام ففاتهم اللحاق بها، فندب الرسول ﷺ الناس للخروج لأخذها وهي عائدة، فخرج زيادة عن ثلاثمائة مسلم معظمهم من الأنصار، ولم يكن معهم سوى فرسين، وكل ثلاثة يتعاقبون على بعير، وكانوا لا يظنون أنهم سيلقون جيشاً كبيراً في بدر.

وصلت الأخبار لأبي سفيان بن حرب فقام بعمل مزدوج شديد الذكاء، حيث غير مسار القافلة، ثم أرسل يخبر قريشاً بالأمر، فاستعد المشركون لحرب المسلمين بجيش يقوده أبو جهل وسادة قريش وتعدادهم ألف مقاتل، واشتركت فيه كل بطون قريش عدا بني عدي، وقد تمثل لهم إبليس في صورة سراقه بن مالك سيد بني كنانة، ليحفزهم على قتال المسلمين، وقال لهم كما ذكر الله خبرهم في كتابه: ﴿إِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ (الأنفال، 48).

عرف المسلمون حقيقة الأمر، وأنهم أمام مواجهة غير متوقعة مع جيش كبير، وقد فاتتهم القافلة فأراد الرسول ﷺ أن يتعرف على رأي المهاجرين والأنصار في القتال، فسمع ما يسره من كليهما وتم اختيار مكان القتال وبشرهم الرسول بالظفر، وحدد الرسول مصارع المشركين، للتأكيد على نصر الله عز وجل للمسلمين، وبنى المسلمون للرسول عريشاً يمكث فيه أثناء القتال لمتابعة سير المعركة ويمكث الرسول ليلة المعركة في الصلاة والدعاء والاستغفار، وقد نزل في هذه الليلة مطر خفيف على المسلمين وشديد على المشركين.

في هذه الليلة وقعت بوادر انشقاق داخل صف المشركين وحاول حكيم بن حزام وعتبة بن ربيعة إثناء الناس عن القتال، ولكن أبا جهل أجهض هذه المحاولات وأزكى حفائظ الناس حتى استوثقوا على القتال، وفي يوم الجمعة 17 رمضان سنة 2هـ، كان يوم الفرقان، اليوم الخالد في تاريخ هذه الأمة، حيث اللقاء الأول الكبير بين جند الرحمن بقيادة الرسول ﷺ ومعهم جبريل وميكائيل في جيش من الملائكة الأطهار، وجند الشيطان بقيادة أبي جهل ومعهم إبليس لعنه الله، وخرج ثلاثة من فرسان المشركين هم عتبة بن ربيعة وولده الوليد وأخوه شيبه يطلبون المبارزة، فخرج إليهم ثلاثة من المهاجرين حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث، فقتل المشركون الثلاثة، ثم اندلع القتال الشامل التي تجلت فيه نواذر البطولة والضياء في عدة مواقف يطول شرحها مثل موقف عمير بن الحمام، ومعاذ ومعوذ ابني عفراء، وعوف بن الحارث، وأبي عبيدة بن الجراح، وعمر بن الخطاب ومصعب بن عمير.

وانتهت المعركة بنصر عظيم للمؤمنين، أنزل الله عز وجل فيه قرآنًا يتلى إلى يوم القيامة، في سورة الأنفال، وسماه الله عز وجل يوم الفرقان، وتثبتت به دعائم دولة الإسلام الوليدة في المدينة.

غزوة أحد

اتفق كتاب السيرة على أنها كانت في شوال من السنة الثالثة الهجرية، واختلفوا في اليوم الذي وقعت فيه. وأشهر الأقوال أنه السبت، للنصف من شوال.

أسبابها:

لقد كان السبب المباشر لها، كما أجمع على ذلك أهل السير، هو أن قريشاً أرادت أن تنتقم لقتلها في بدر، وتستعيد مكانتها التي تزعزعت بين العرب بعد هزيمتها في بدر. أما من بين الأسباب الأخرى الهامة التي يمكن استنتاجها من مجريات الأحداث، فهي أن قريشاً تريد أن تضع حداً لتهديد المسلمين طرق تجارتهم إلى الشام، والقضاء على المسلمين قبل أن يصبحوا قوة تهدد وجودهم.

عدة المشركين

خصصت قريش قافلة أبي سفيان التي نجت من المسلمين، وأرباحها، لتجهيز جيشهم لغزوة أحد، وجمعت ثلاث آلاف مقاتل من قريش ومن أطاعها من كنانة وأهل تهامة، ومعهم مائتا فرس، وسبعمائة دارع، وجعلت على الميمنة خالد بن الوليد وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل، وخرجت معهم مجموعة من النساء لإثارة حماسهم وخوفهم من العار إذا فروا.

وذكر ابن إسحاق أنهم كن ثمانياً، وقال الواقدي: إنهن كن أربع عشرة، وقد سمياهن. وقال ابن سعد: إنهن كن خمس عشرة امرأة.

وأرى الرسول صلى الله عليه وسلم في منامه ما سيحدث في أحد، وذكره لأصحابه، قائلاً: "رأيت في رؤياي أني هزرتة سيفاً فانقطع صدره، فإذا هو ما أصيب من المؤمنين يوم أحد، ثم هزرتة أخرى فعاد كالحسن ما كان، فإذا هو ما جاء الله به من الفتح واجتماع المؤمنين، ورأيت بقراً -والله خير- فإذا هم المؤمنون يوم أحد"، وفي رواية أخرى: "ورأيت أني في درع حصينة فأولتها المدينة". وفسر الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الرؤيا بأن هزيمته وقتلا سيقعان من أصحابه.

عندما علم الرسول صلى الله عليه وسلم بمجيء جيش مكة لحرب المسلمين، شاور أصحابه، بين أن يبقوا داخل المدينة أو يخرجوا لملاقاة العدو خارجها. فقال جماعة من الأنصار: يا نبي الله، إنا نكره أن نقتل في طرق المدينة، وقد كنا نمتنع من الفوز في الجاهلية، فبالإسلام أحق أن نمتنع منه، فابرز إلى القوم، فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فلبس لأمته. فتلاوم القوم فقالوا: عرض نبي الله صلى الله عليه وسلم بأمر وعرضتم بغيره، فاذهب يا حمزة فقل للنبي صلى الله عليه وسلم: "أمرنا لأمرك تبع"، فأتى حمزة فقال: يا نبي الله، إن القوم قد تلاوموا فقالوا: أمرنا لأمرك تبع، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: "إنه ليس لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يناجز".

إن ما ذكره ابن إسحاق وغيره من أن عبد الله بن أبي كان موافقاً لرأي رسول الله صلى الله عليه وسلم في البقاء داخل المدينة، فقد روى الطبري عن السدي خلاف ذلك، وهو أثر إسناده صحيح ورجاله ثقات ولكنه مرسل، وفيه من يهمل ويكثر الخطأ، ولذلك رجح الباكري رواية ابن إسحاق لصحتها ولإجماع أهل السير على ذلك، وأن حجة ابن سلول في الرجوع عن أحد أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يطلعه.

ومما ذكره أهل السير أن من دوافع الراغبين في الخروج، إظهار الشجاعة أمام الأعداء والرغبة في المشاركة في الجهاد لما فاتهم من فضل الاشتراك في بدر. أما دوافع الرسول صلى الله عليه وسلم ومن كان على رأيه في البقاء داخل المدينة فهو الاستفادة من حصون المدينة وطاقات كل المواطنين مما يرجح فرصة دحر المهاجمين.

وبعد أن حسم الرسول صلى الله عليه وسلم أمر الخروج رفعت راية سوداء وثلاثة ألوية: لواء للمهاجرين، حملة مصعب بن عمير، وحملة بعد استشهاد علي بن أبي طالب، ولواء للأوس حملة أسيد بن خضير، ولواء للخزرج، حملة الحباب ابن المنذر. وبلغ عدد من سار تحتها ألفاً من المسلمين ومن ظاهريهم، وكان معهم فرسان ومائة دارع. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يرتدي درعين.

معارف إسلامية

وعندما تجاوز الرسول صلى الله عليه وسلم في مسيره إلى أحد ثنية الوادع رأى كتيبة خشناء، فقال: "من هؤلاء؟" قالوا: هذا عبد الله بن أبي سلول في ستمائة من مواليه من اليهود من أهل قينقاع، وهو رهط عبد الله بن سلام. قال: وقد أسلموا؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: قولوا لهم فليرجعوا فإننا لا نستعين بالمشركين على المشركين". وإذا صح هذا الخبر يكون جلاء قينقاع بعد أحد.

وعندما وصل جيش المسلمين الشوط. وهو مكان ملعب التعليم بالمدينة الآن، انسحب المنافق ابن سلول بثلاثمائة من المنافقين، بحجة أنه لن يقع قتال المشركين، ومعتزلاً على قرار القتال خارج المدينة، قائلاً: "أطاع الولدان ومن لا رأي له، أطاعهم وعصاني، علام نقتل أنفسنا".

ورأت فرقة من الصحابة قتال هؤلاء المنافقين، ورأت الفرقة الأخرى عدم ذلك، فنزلت الآية الكريمة: ﴿فمَالِكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فُتِّينَ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا﴾ (النساء، الآية 88). واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام عند انسحابهم، وأخذ يقول لهم: "أذكركم الله أن تخذلوا قومكم ونبികم عندما حضر من عدوهم، فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ولكننا لا نرى أن يكون قتال. فلما استعصوا عليه، قال: أبعدكم الله أعداء الله، فسيغني الله عنكم نبيه"، وقد أشار القرآن إلى هذا الحوار في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّيِّ الْجُنْعَانِ فَيَاذَنِ اللَّهُ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران، الآية 166). ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ (آل عمران، الآية 167).

وكادت بنو سلمة، من الخزرج، وبنو حارثة، من الأوس، أن تنخذل مع المنافقين لولا أن الله ثبتهم مع المؤمنين، وفيهم قال الله عز وجل: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا ...﴾ (آل عمران، الآية 122).

وانزل الله تعالى النعاس على طائفة المؤمنين الذين اغتموا بما وقع للرسول صلى الله عليه وسلم وإخوانهم يوم بدر فناموا يسيرا ثم أفاقوا وقد قذف الله في قلوبهم الطمانينة، التي أعادت لهم بعض نشاطهم ليواصلوا الدفاع عن نبيهم.

وكان أبو طلحة الأنصاري فيمن تغشاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفه من يده مراراً فياخذه. وفي ذلك نزل قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنْكُمْ﴾ (آل عمران، الآية 154). أما طائفة المنافقين، سواء التي انسحبت مع ابن سلول أو فلولهم التي سارت مع المؤمنين فقد قال الله عنهم في الآية نفسها: ﴿مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ (آل عمران، الآية 154).

لقد حاول المشركون جهد طاقتهم قتل الرسول صلى الله عليه وسلم ولكن الله عصمه منهم. فقد روي أن أبيا بن خلف كان يتوعد الرسول صلى الله عليه وسلم بمكة بأنه سيقتله يوماً ما، فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (بل أنا أقتلك إن شاء الله)، فلما كان يوم أحد لحق النبي صلى الله عليه وسلم في الشعب وهو يقول: أي محمد، لا نجوت إن نجوت، فقال القوم: يا رسول الله، أيعطف عليه رجل منا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: دعوه. فلما دنا تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم الحربة من الحارث بن الصمة، ثم استقبله فطعنه في عنقه طعنة مال منها على فرسه مراراً، ورجع إلى قريش وبه خدش غير كبير، فاحتقن الدم، فقال: "قتلني والله محمد" وطماننة قومه بأن ليس به بأس، فقال لهم ما قال له محمد صلى الله عليه وسلم بمكة، ثم قال: "فوالله لو بصق علي لتقلني". فمات عدو الله بسرف، وهم قافلون به إلى مكة. وهذا من علامات ودلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

معارك إسلامية

وعندما صمد المسلمون واستماتوا دفاعاً عن النبي صلى الله عليه وسلم فشل المشركون في محاولات الاختراق إليه، وأعيتهم المجالدة، ولم يملك أبو سفيان إلا أن يتوعد المسلمين بحرب أخرى في العام القادم، فوافق الرسول صلى الله عليه وسلم على ذلك.

وقد ثبت أن أبا سفيان أشرف على المسلمين، وقال: أي القوم محمد؟ فقال صلى الله عليه وسلم: لا تجيبوه، فقال: أي القوم ابن أبي قحافة؟ قال: لا تجيبوه، قال: أي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء قتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا. فلم يملك عمر نفسه، فقال: كذبت يا عدو الله، أبقى الله عليك ما يحزنك، قال أبو سفيان: اعل هبل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أجيبوه، قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: الله أعلى وأجل. قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أجيبوه، قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: والله مولانا ولا مولى لكم. قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر والحرب سجال. وتجدون مثله لم أمربها ولم تسؤني، وفي رواية عند أحمد وابن إسحاق قال عمر: لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار.

وعندما انصرف المشركون مكتفين بما نالوه من المسلمين، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً بن أبي طالب، وقال له: "أخرج آثار القوم، فانظر ماذا يصنعون وما يريدون، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل، فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل، فإنهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها، ثم لأناجزنهم"، وفعل علي ما أمر به، فوجدهم قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل ووجهوا إلى مكة، وانجلت المعركة عن سبعين شهيداً من المسلمين، واثنين وعشرين قتيلاً من المشركين.

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يلتمس حمزة فوجده ببطن الوادي قد بقربطنه عن كبده، ومثل به، فجدع أنفه وأذناه. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأى ما به: "لولا أن تحزن صفية، ويكون سنة من بعدي لتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير، ولئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم"، فلما رأى المسلمون حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيظه على من فعل بعمه ما فعل، قالوا: والله لئن أظفرننا الله بهم يوماً من الدهر لنمثلن بهم مثله لم يمثلها أحد من العرب. ونزل قول الله تعالى: ﴿وإن عاقبتُم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾، فعفا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصبر ونهى عن المثلة.

وعن قصة التمثيل بجثة حمزة رضي الله عنه، فقد روى موسى بن عقبة أن وحشياً بقر عن كبده حمزة وحملها إلى هند بنت عتبة فلاكتها فلم تستطع أن تستسيغها.

وروى ابن إسحاق أن هنداً هي التي بقرت عن كبده حمزة، وزاد أن هنداً اتخذت من أذان الرجال وأنفهم خدماً أي خلاخل وقلائد، وأعطت خدماً وقلائد وقطرتها وحشياً.

وروى الواقدي أن وحشياً عندما قتل حمزة حمل كبده إلى مكة ليراها سيده جبير بن مطعم.

وذكر الشامي أن الواقدي والمقرئ في الإمتاع روى أن وحشياً شق بطن حمزة وأخرج كبده وجاء بها إلى هند فمضغت ثم لفظتها، ثم جاءت معه إلى حيث جثة حمزة، فقطعت من كبده وجدعت أنفه وقطعت أذنيه ثم جعلت مسكتين ومعضدين وخدمتين حتى قدمت بذلك مكة.

معارك إسلامية

ولعل رواية الواقدي والمقريزي التي أشار إليها الشامي تفيد الجمع بين روايتي ابن عقبة وابن إسحاق، وتوافقهما في المضمون.

أما التمثيل بجثة حمزة فقد ثبت بطرق صحيحة كما ذكرنا، مما يدل على أن قصة بقر كبد حمزة التي ذكرها بعض أهل المغازي والسير لها أصل.

وسجلت لبعض النساء المسلمات مواقف إيمانية رائعة في تقبلهن مصابهن في أهليهن وفرجهن بحياة الرسول صلى الله عليه وسلم. ومن أمثلة ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم مر هو وأصحابه بامرأة من بني دينار، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحد، فلما نعو لها قالت: "فما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالوا: خيرا يا أم فلان. هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أروني حتى أنظر إليه؟ فأشير إليه حتى إذا رآته قالت: كل مصيبة بعدك جلل أي صغيرة.

وعندما أقبلت صفية أخت حمزة لتتنظر إليه، طلب الرسول صلى الله عليه وسلم من ابنها الزبير أن يرجعها حتى لا ترى ما بأخيها من مثلة، فقالت: ولم؟ وقد بلغني أن قد مثل بأخي، وذلك في الله، فما أرضانا بما كان من ذلك. لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله. وعندما أخبر الزبير النبي صلى الله عليه وسلم بقولها، أمره بأن يخلي سبيلها، فأنته فنظرت إليه، فصلت عليه واسترجعت واستغفرت له، ثم أمر به فدفن.

وقد روى البخاري وأبو داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد في ثوب واحد، ثم يقول: "أيهم أكثر أخذاً للقرآن؟ فإذا أشير لأحد قدمه في اللحد، وقال: أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة" وأمر بدفنهم بدمائهم ولم يصل عليهم، ولم يغسلوا، ودفن الاثنان والثلاثة في قبر واحد، وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يدفنوا حيث صرعوا، فأعيد من أخذ ليدفن داخل المدينة. وبعد الدفن، صف الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه وأثنى على ربه ثم دعا الله أن يعطيهم نعيم الدنيا والآخرة وأن يقتل الكفرة والمكذبين.

وكان يتمنى أن يمضي شهيدا مع أصحابه الذين استشهدوا يوم أحد، وقد أثنى عليهم عندما سمع عليا يقول لفاطمة: هاك السيف فإنها قد شفتني، فقال له: "لئن كنت أجذب الضرب بسيفك، لقد أجاد سهل ابن حنيف وأبو دجانة وعاصم ابن ثابت الأقلح والحارث بن الصمة".

وبشر الرسول صلى الله عليه وسلم بما نال الشهداء من عظيم الأجر، فقد قال عندما سمع بكاء فاطمة بنت عبدا لله بن عمرو والد جابر: "ولم تبكي؟ فما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه".

ونزل في شهداء أحد قول الله تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ (آل عمران، الآية 169). فقد روى مسلم أن الصحابة رضي الله عنهم سألوا ابن مسعود عن هذه الآية، فقال: {أما أنا قد سألنا ذلك. فقال: أرواحهم في جوف طير خضر. لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل}؛ ولذا قال العلماء إن حياة الشهداء حياة محققة حسبما جاء في هذا الحديث.

أحكام وحكم وعقوبات وعبر من غزوة أحد:

عقد ابن القيم فصلاً فيما اشتملت عليه هذه الغزوة من الأحكام الفقهية، ننقلها هنا باختصار لتعميم الفائدة:

- إن الجهاد يلزم بالشروع فيه، حتى إن استعد له وتأهب للخروج، وليس له أن يرجع عن ذلك حتى يقاتل عدوه.
- إنه لا يجب على المسلمين إذا طرقتهم عدوهم في ديارهم الخروج إليه، بل يجوز لهم أن يلزموا ديارهم، ويقاتلوهم فيها إذا كان ذلك أنصر لهم على عدوهم، كما أشار به رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم يوم أحد.

معارك إسلامية

- جواز سلوك الإمام بالعسكر في أملاك رعيته إذا صادف ذلك طريقة، وإن لم يرض المالك، كما كان حال مربع بن قبيظ مع الرسول صلى الله عليه وسلم وجيشه.
- إنه لا يأذن لمن لا يطيق القتال من الصبيان غير البالغين، بل يردهم إذا خرجوا، كما رد رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن عمرو من معه.
- جواز الغزو بالنساء والاستعانة بهن فيما دون القتال مثل السقي والتطبيب.
- جواز الانغماس في العدو، كما انغمس أنس بن النضر وغيره.
- إن الإمام إذا أصابته جراحة صلى بأصحابه قاعداً، وصلوا وراءه قعدوا، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم واستمرت على ذلك سنته إلى حين وفاته.
- جواز دعاء الرجل وتمنيه أن يقتل في سبيل الله، وليس ذلك من تمني الموت المنهي عنه، كما فعل عبد الله بن جحش.
- إن المسلم، إذا قتل نفسه، فهو من أهل النار، كما في حال قزمان.
- السنة في الشهيد أن لا يغسل ولا يكفن في غير ثيابه، بل يدفن فيها بدمه، إلا أن يسلبها العدو، فيكفن في غيرها. والحكمة في ذلك كما روى الترمذي "حتى يلقوا ربهم بكلهم -جروحهم-، ريح دمهم ريح المسك، واستغنوا بإكرام الله لهم". كما روى ابن إسحاق أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال عن شهداء أحد: "أنا شهيد على هؤلاء، ما من جريح يجرح في الله، إلا والله يبعثه يوم القيامة، يدمى جرحه، اللون لون الدم والريح ريح مسك".
- أما الصلاة على الشهيد فقد اختلف فيها العلماء وقد رجح ابن القيم أن الإمام مخير بين الصلاة عليه وتركها لمجيء الآثار بكل واحد من الأمرين. وقد خرج محققا الزاد تلك الآثار وبيننا درجتها من الصحة، ثم قال: "ففي هذه الأحاديث مشروعية الصلاة على الشهداء لا على سبيل الإيجاب، لأن كثيراً من الصحابة استشهد في غزوة بدر وغيرها، ولم ينقل أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى عليهم، ولو فعل لنقل عنه".
- السنة في الشهداء أن يدفنوا في مصارعهم.

- إن من عنزه الله في التخلف عن الجهاد، لمرض أو عرج شديد أو شيخوخة "يجوز له الخروج إليه، وإن لم يجب عليه، كما خرج عمرو بن الجموح، وهو أعرج،" واليمان والد حذيفة وثابت بن وقش وهما شيخان كبيران".
- إن المسلمين إذا قتلوا واحداً منهم في الجهاد يظنونونه كافراً، فعلى الإمام دفع ديته من بيت المال، كما في واقعة قتل اليمان.

وذكر ابن القيم بعض الحكم والغايات الحمودة التي كانت في غزوة أحد. وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى أمهاتها وأصولها في سورة آل عمران حيث افتتح القصة بقوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ...﴾ (آل عمران، الآية 121)، إلى تمام ستين آية من هذه السورة. نذكر هنا باختصار ما ذكره ابن القيم:

- تعريف المؤمنين بسوء عاقبة المعصية والفشل والتنازع، وأن الذي أصابهم هو لذلك السبب، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ (آل عمران، الآية 152) فلما ذاقوا عاقبة معصيتهم للرسول صلى الله عليه وسلم وتنازعهم وفشلهم، كانوا بعد ذلك أشد حذراً ويقظة وتحرزاً من أسباب الخذلان.
- إن حكمة الله وسنته في رسله، وأتباعهم، جرت بأن يدالوا مرة ويدال عليهم أخرى، لكن تكون لهم العاقبة، فإنهم لو انتصروا دائماً لم يحصل المقصود من البعثة والرسالة، فاقتضت حكمة الله أن جمع لهم بين الأمرين ليتميز من يتبعهم ويطيعهم للحق وما جاؤوا به ممن يتبعهم على الظهور والغلبة، خاصة وإن هذا من أعلام الرسل كما قال هرقل لأبي سفيان: "هل قاتلتموه؟ قال: نعم. قال: كيف الحرب بينكم وبينه؟ قال: سجال، يدال علينا المرة، ونдал عليه الأخرى. قال: كذلك الرسل تبتلى، ثم تكون لهم العاقبة".

معارك إسلامية

- ميزت محنة أحد بين المؤمن والمنافق الذي دخل الإسلام ظاهراً بعد انتصار المسلمين ببدر، وفي ذلك قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾.
- استخراج عبودية أوليائه وحزبه في السراء والضراء، فإذا ثبتوا على الطاعة والعبودية فيما يحبون وما يكرهون، فهم عبيده حقاً، وليسوا كمن يعبد الله على حرف واحد من السراء والنعمة والعافية.
- لا يصلح عباده إلا السراء والضراء، فهو المدبر لأمر عباده كما يليق بحكمته، فهو سبحانه إذا أراد أن يعز عبده، ويجبره، وينصره، كسره أولاً، ويكون جبره له، ونصره على مقدار ذلّه وانكساره، وهذا ما وقع للمسلمين ببدر ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ (آل عمران، الآية 123). وبحنين ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً ﴾ (التوبة، الآية 25)
- إنه سبحانه هيا لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته، لم تبلغها أعمالهم، ولم يكونوا بالغيا إلا بالبلاء والمحنة، فقيض لهم الأسباب التي توصلهم إليها من ابتلائه وامتحانه، كما وفقهم للأعمال الصالحة التي هي من جملة أسباب وصولهم إليها.
- إن النفوس تكتسب من العافية الدائمة والنصر والغنى طغياناً وركوناً إلى العاجلة، وذلك مرض يعوقها عن جدها في سيرها إلى الله والآخر، فإذا أراد الله بها الرحمة والكرامة فيض لها من الابتلاء ما فيه دواء وشفاء لذلك المرض.

- إن الشهادة عند الله من أعلى مراتب أوليائه، ولا سبيل إلى نيل هذه الدرجة إلا بتقدير الأسباب المفضية إليها من تسليط العدو وغيره.
- إن في الابتلاء من الله تمحيص وتكفير لذنوب عباده وفرصة لهم لنيل الشهادة قال تعالى: ﴿وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء، والله لا يحب الظالمين، وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾ (آل عمران، الآية 140-141)
- إن الأنبياء عليهم السلام، إذا أصيبوا ببعض العوارض الدنيوية من الجراحات والآلام والأسقام تعظيماً لأجرهم تأسى بهم أتباعهم في الصبر على المكاره والعاقبة للمتقين، وهذه سنة الله فيهم.
- إن اشتراك الرسول صلى الله عليه وسلم في القتال مثله كأي فرد من أفراد جيشه دليل على حرصه صلى الله عليه وسلم على عدم تميزه عن جنده ومساواة نفسه بهم. وفيه دليل على شجاعته وصبره وتحمله الأذى في سبيل دعوته.

معركة دومة الجندل

لم تهدأ ثائرة مشركي مكة بعد هزيمتهم في بدر على أيدي المسلمين، ومقتل عدد كبير من رجالات قريش وصناديد العرب وعتاة الكفر على أسنة رماح المسلمين وحد سيوفهم، فظلموا يتحينون الفرصة للانتقام من محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وإنزال الهزيمة بهم، يريدون بذلك أن يمحوا عن أنفسهم عار هزيمتهم الكبرى في بدر.

وحانت لهم تلك الفرصة في أحد، خاصة بعد أن خالف الرماة أمر النبي صلى الله عليه وسلم وتخلوا عن موقعهم أعلى الجبل، فوجدها خالد بن الوليد داهية العرب وكان على رأس فرسان قريش فرصة مواتية لالتفاف حول جيش المسلمين والحاق الهزيمة بهم.

واستطاع خالد صعود الجبل وقتل من بقي من رماة المسلمين، ثم فاجأ جيش المسلمين بمن معه من المشركين؛ فأنكشف المسلمون، وكانت محنة قاسية ألحقت بهم هزيمة أليمة، برغم صمودهم واستبسالهم في القتال، ولكن وقع المفاجأة كان شديداً، وسرعة المباغتة حسمت المعركة لصالح المشركين.

وعاد المسلمون إلى المدينة يللمون جراح الحرب وأتراح الهزيمة، ولم تكن آلام الجرحى ولهفات الثكالى تساوي شيئاً أمام مرارة الهزيمة وإخفاق راية المسلمين في إحدى معاركهم ضد المشركين.

تسببت لهزيمة في حرج موقف المسلمين في المدينة - بالرغم من بقاء سلطانهم عليها - أمام اليهود والمشركين الشامتين والمتربصين زوال دولة المسلمين من المدينة، وإن كانوا حتى ذلك الحين وبالرغم مما مُني به المسلمون من الهزيمة لا يقوون على مجاهرة المسلمين بشعورهم أو مناصبتهم العداء.

وأدرك النبي صلى الله عليه وسلم ما يعمل في صدور المسلمين من الحزن والأسى، وما يشعرون به من مرارة الهزيمة وجرح الإخفاق، بالرغم من مواساة القرآن الكريم للمسلمين وعزائمه لهم في قوله تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (آل عمران، الآية 140)

فقد كانت قلوب المسلمين وهمهم تهفو إلى الخروج من دائرة الحزن وتجاوز الهزيمة إلى الإعلان عن قوتهم، وإظهار بأسهم لأعدائهم المتربصين بهم، سواء من الداخل في المدينة أو من الخارج قريش وقبائل العرب من المشركين.

مؤامرات اليهود وخيانتهم عهد النبي:

أراد النبي صلى الله عليه وسلم كما أراد المسلمون أن يثبتوا لأعدائهم أنهم ما زالوا يملكون من القوة والبأس ما يستعيدون به مكانتهم وهيبتهم في نفوس العرب واليهود.

وكان بين المسلمين واليهود من سكان المدينة عهد وضعه النبي صلى الله عليه وسلم وأقره الطرفان منذ اللحظة الأولى لدخول النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، تكفل بمقتضاه حرية العقيدة والعبادة للطرفين، كما كانت بينهما وثيقة دفاع مشترك عن المدينة ضد أي خطر يهددها أو عدوان عليها من الخارج.

ولكن طمع اليهود في الاستئثار بالمدينة وما جُبلوا عليه من الغدر والمكر والخداع جعلهم يتآمرون على النبي صلى الله عليه وسلم ويخططون لاغتياله والتخلص منه ومن دعوته، وعلم النبي صلى الله عليه وسلم بما حاكه يهود بني النضير ضده، بعد أن أطلعه الله على تدبيرهم ومؤامرتهم.

معارك إسلامية

فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى بني النضير يأمرهم بالجلء عن المدينة، ليعود الأمن والاستقرار يرفرف من جديد عليها، بعد أن تخلص المسلمون من غدرهم ومؤامراتهم، وتمتعوا بما أفاء الله عليهم به من أموال اليهود وحدائقهم.

وعلم النبي صلى الله عليه وسلم بعزم مشركي مكة على الخروج لملاقاة المسلمين في جيش كبير؛ فاستعد لهم وخرج للقائهم في نحو ألف فارس، وجعل على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول، وخرج المشركون من مكة بقيادة أبي سفيان بن حرب في نحو ألفي فارس، ولكن أبا سفيان قرر العودة إلى مكة بعد مسيرة يومين فرجع بأصحابه، وظل النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون ينتظرون 8 أيام قاموا خلالها ببعض العمليات التجارية مع قبائل المنطقة ربحوا فيها أموالا كثيرة، ثم عادوا إلى المدينة تسبقهم بشرى انسحاب قريش من مواجهتهم في بدر الآخرة وفرار المشركين من لقائهم؛ وهو ما أعاد إلى المسلمين المزيد من الثقة والطمأنينة، وأكسبهم المزيد من الهيبة والعزة في نفوس أعدائهم.

الخطر القادم من الشمال:

ولكن ما لبث النبي صلى الله عليه وسلم أن علم باجتماع قبائل "دومة الجندل" وتجهزهم لحرب المسلمين وتهديد المدينة، وكانوا يعتدون على القوافل التي تمر بهم، ويتعرضون لمن يدنون من أراضيهم فينهبون التجارة ويسلبون الأموال ويقتلون كل من يعترضهم، حتى أصبحوا مصدر خطر على قوافل التجارة التي تأتي إلى المدينة والتي ينتظرها المسلمون ويعتمدون عليها.

فندب النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين للخروج لقتال تلك القبائل وكف أذاها والقضاء على تهديدها المستمر للمدينة؛ فخرج معه ألف من المسلمين، واستعمل النبي صلى الله عليه وسلم على المدينة "سباع بن عُرْفُطَة الغفاري" وانطلق المسلمون في طريقهم إلى دومة الجندل.

كانت المسافة طويلة والطرق موحشة والصحراء قاحلة شديدة القَيْظ، وكان على المسلمين أن يقطعوا نحو 300 كم ليصلوا إلى دومة الجندل في شمال الجزيرة العربية، ما بين الحجاز والشام على بعد نحو 10 مراحل من المدينة.

واختار النبي صلى الله عليه وسلم معه دليلاً من بني عذرة يقال له "مذكور" كان شديد الذكاء، على قدر فائق من المهارة والخبرة والدراية بدروب الصحراء وطرقها الخفية ومضايقتها.

وانطلق النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يقطعون الفيافي والقفار، مستهينين بالمصاعب والمشاق، متحملين القَيْظ الشديد وجذب الصحراء وقلة الماء، لا يبالون بالموت، يدفعهم إيمانهم بالله ورسوله إلى اجتياز تلك الصحراء القاحلة والفيافي الموحشة؛ طاعة لله تعالى، واستجابة لنداء النبي صلى الله عليه وسلم، يحركهم إيمانهم القوي بالنصر والظفر.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يسير ليلاً ويكمن نهاراً؛ حتى لا يشعر به أحد من المشركين ولا تنتبه إلى قدومه قبائل دومة الجندل، فيصل إليها قبل أن تستعد للقاءه؛ وهو ما يكفل له تحقيق عنصر المفاجأة ومباغطة العدو.

كما أراد النبي صلى الله عليه وسلم بذلك أيضاً أن يتقي وأصحابه قَيْظ الصحراء وحرها الشديد، ولفح شمسها ولهيب رمالها؛ فلا يقابل المسلمون أعداءهم وهم خائرو القوة، منهكون من أثر وعورة الطريق وحرارة الجو.

فلما اقترب النبي صلى الله عليه وسلم من دومة الجندل أخبره الدليل بوجود قطعان من الإبل والماشية ترعى في الصحراء، وكانت لقوم من تميم فأنطلق المسلمون ليستولوا عليها، واستطاعوا أن يجمعوا عددا منها، بينما فر الكثير منها وتفرقت في كل اتجاه. وشعر أهل دومة الجندل بقدوم المسلمين فأسرعوا بالفرار تاركين ديارهم ومتاعهم لينجوا بأنفسهم من المسلمين.

ونزل النبي صلى الله عليه وسلم بساحتهم فلم يجد بها أحدا فأقام النبي بها أياما وبحث السرايا تبحث في كل الأنحاء، ولكنهم لم يلقوا أحدا ولم يظفروا إلا برجل منهم أتى به محمد بن مسلمة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فسأله عن أصحابه فقال: هربوا أمس، فعرض عليه النبي صلى الله عليه وسلم الإسلام فأسلم.

وبقي النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون بها أياما، ثم رجعوا إلى المدينة في 20 من ربيع الآخر 5 هـ/ 18 من سبتمبر 626 م.

كانت غزوة دومة الجندل - كما أطلق عليها بعض العسكريين المعاصرين - عملية عسكرية ذات طابع تعريضي للدفاع عن قاعدة الإسلام في المدينة، إذ إن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينتظر حتى يفاجئه أعداؤه بشن هجومهم على المدينة، وإنما بادر بالإغارة عليهم فور علمه بما عزموا عليه.

وقد استهدفت تلك الغزوة تحقيق عدة أهداف تكتيكية وإستراتيجية؛ فقد ساهمت في القضاء على روح الضعف والتخاذل التي كادت تصيب المسلمين بعد هزيمتهم في أحد، وساعدت على التخلص من آثار تلك الهزيمة التي أصابتهم، كما عملت على رفع الروح المعنوية لديهم واستعادة الثقة بالنفس، وفي الوقت نفسه تدمير الروح المعنوية لجنود الأعداء.

كما أنها كانت بمثابة استعراض لقوة المسلمين لإرهاب أعدائهم وتبديد أطماعهم في المسلمين، بالإضافة إلى ما حققته من إحباط لخطط العدو الهجومية ووادها في مهدها، وحرمان العدو من تحقيق عنصر المفاجأة وسرعة المبادأة.

العسكرية العسكرية للرسول القائد:

قد تجلت العسكرية العسكرية للنبي صلى الله عليه وسلم في تلك الغزوة من عدة وجوه منها:

- استخدام ما يُعرف بالإنذار المبكر، ومعرفة تحركات العدو وخططه العسكرية مبكراً.
- عدم الاستهانة بالعدو، والاستعداد الجيد للمعركة، والاستعانة بأهل الخبرة والمتخصصين في فنون الحرب ودروب الصحراء.
- السرية التامة وإخفاء والتمويه المتقدم، وذلك بسلوك طرق غير مألوفة، والسير والتحرك ليلاً، والكمون والراحة نهاراً.
- الحرص على تأكيد السيطرة على الموقف، وإعلان السيادة وتحقيق النصر عند فرار الأعداء، وذلك بالبقاء في ديار الأعداء الهاربين لمدة طويلة.
- تحقيق عنصر المبادأة أو المبادرة ومفاجأة الأعداء بالهجوم عليهم في عقرب دارهم، قبل أن يكملوا استعدادهم، وبذلك يتمكن من إحراز النصر

غزوة الأحزاب (الخنلق)

تاريخ الغزوة:

وقعت هذه الغزوة في شوال سنة خمس كما قال ابن إسحاق ومن تابعه، وهو قول الجمهور، وقال الواقدي: إنها وقعت في يوم الثلاثاء الثامن من ذي القعدة في العام الخامس الهجري، وقال ابن سعد: إن الله استجاب لدعاء الرسول صلى الله عليه وسلم فهزم الأحزاب يوم أربعاء من شهر ذي القعدة سنة خمس من مهاجرة. ونقل الزهري ومالك بن أنس وموسى بن عقبة أنها وقعت سنة أربع هجرية.

ويرى العلماء أن القائلين بأنها وقعت سنة أربع كانوا يعدون التاريخ من المحرم الذي وقع بعد الهجرة ويلفون الأشهر التي قبل ذلك إلى ربيع الأول، فتكون غزوة بدر عندهم في السنة الأولى، وأحد في الثانية والخنلق في الرابعة، وهو مخالف لما عليه الجمهور من جعل التاريخ من المحرم سنة الهجرة. وجزم ابن جزم أنها وقعت سنة أربع لقول ابن عمر أن الرسول صلى الله عليه وسلم رده يوم أحد وهي في السنة الثالثة باتفاق وهو ابن أربع عشرة سنة، ولكن البيهقي وابن حجر وغيرهما فسروا ذلك بأن ابن عمر كان يوم أحد في بداية الرابعة عشرة ويوم الخندق في نهاية الخامسة عشرة وهو الموافق لقول جمهور العلماء.

سبب الغزوة:

لم تضع الحرب أوزارها بين مشركي مكة والمسلمين إلا بعد فتح مكة في العام الثامن الهجري، ولذا فمن البدهي أن تحاول قريش في كل مرة القضاء على قوة المسلمين التي ترى فيها تهديداً مستمراً لطرق قوافلها وخطراً على مكانتها بين العرب.

أرادت قريش في هذه المرة أن تحسم هذا الصراع مع المسلمين لصالحها، فحشدت له أكبر قوة ممكنة حيث لجأت إلى التحالف مع كل من له مصلحة في القضاء على المسلمين. ووجدوا أكبر ضالّتهم في قريش، فقد التقت أهداف الفريقين، وهو القضاء على المسلمين.

كان أول ما فكر فيه زعماء بني النضير الذين خرجوا إلى خيبر أن يتصلوا بقريش والقبائل الأخرى للثأر لأنفسهم والطمع في العودة إلى ديارهم وأماكنهم في المدينة. فخرج وفد منهم إلى مكة، منهم: سلام بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب وكنانة بن أبي الحقيق النضريون، وهوذة بن قيس وأبو عمار الوائليان، في نفر من بني النضير ونفر من بني وائل، فدعوا قريشاً إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ووعدهم بالقتال معهم، حتى يستأصلوه، وافتوهم بأن دينهم خير من دين محمد صلى الله عليه وسلم، وأنهم أولى بالحق منهم، وفيهم أنزل الله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾. (النساء، الآية 51)، ثم اتجهوا بعد هذا إلى قبيلة غطفان النجدية الكبرى وأغروها بالتحالف معهم ومع قريش على حرب المسلمين، على أن يكون لهم نصف ثمر خيبر، إذا اشتركت معهم في الحرب، وكان وافدهم إلى غطفان كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، فأجابه عيينة بن حصن الفزاري إلى ذلك.

وكتب المشركون إلى حلفائهم من بني أسد، فأقبل إليهم طلحة بن خويلد فيمن أطاعه، وخرج أبو سفيان بقريش ومن اتبعه من قبائل العرب، فنزلوا بمر الظهران، فجاءهم من أجابهم من بني سليم مدداً لهم بقيادة سفيان بن عبد شمس والد أبي الأعور وبنو مرة بقيادة الحارث بن عوف وأشجع بقيادة مسعر ابن ربيعة، فصاروا في جمع عظيم، فهم الذين سماهم الله تعالى الأحزاب، وذكر ابن إسحاق أن عدتهم عشرة آلاف بينما كان المسلمون ثلاثة آلاف.

معارك إسلامية

تحرك هذا الجيش العرموم من مر الظهران في طريقة إلى المدينة. فنزلت قريش ومن سار معها بمجتمع الأسيال من رومة، بين الجُرف وغابة. ونزلت غطفان بذب نقمي إلى جانب أحد، ونزل معهم بنوأسد.

فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أجمعوا له من الأمر، استشار أصحابه، وقد أشار عليه سلمان الفارسي بحفر الخندق في المنطقة الوحيدة المكشوفة أمام الغزاة، أما الجهات الأخرى فكانت كالحصن تتشابك فيها الأبنية وأشجار النخيل وتحيطها الحرات التي يصعب على الإبل والمشاة التحرك فيها.

ووافق الجميع على هذه الفكرة لعلمهم بكثرة الجموع القادمة لحربهم، وشرعوا في حفر الخندق الذي يمتد من أجم الشيخين طرف بن حارثة شرقاً حتى المذاذ غرباً، وكان طوله خمسة آلاف ذراع، وعرضه تسعة أذرع، وعمقه من سبعة أذرع إلى عشرة. وكان على كل عشرة من المسلمين حفر أربعين ذراعاً، والأنصار من حصن ذباب إلى جبل عبيد في الغرب.

وعمل المسلمون في الحفر على عجل، يبادرون قدوم القوم، وقد تراوحت مدة الحفر ما بين ستة أيام وأربعة وعشرين يوماً. فعند ابن عقبة استغرق قريباً من عشرين ليلة، وعند الواقدي أربعاً وعشرين ليلة، وفي الروضة للنووي خمسة عشر يوماً، وعند ابن سعد ستة أيام.

وكان طعامهم القليل من الشعير يخلط بدهن متغير الرائحة لقدمه، ويطبخ فيأكلونه على الرغم من بشاعة طعمه في الحلق ورائحته المنتنة، وذلك لشدة جوعهم. حتى هذا لا يجدونه أحياناً فيأكلون التمر، وأحياناً لا يجدون هذا ولا ذاك لمدة ثلاثة أيام متتالية، إلى الحد الذي يعصب فيه النبي صلى الله عليه وسلم بطنه بحجر من شدة الجوع.

وشارك جميع المسلمين في الحفر، لا فرق بين غني وفقير ومولى وأمير، وأسوتهم في ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم الذي حمل التراب حتى اغبر بطنه ووارى التراب جلده، وكان الصحابة يستعينون به في تفتيت الصخرة التي تعترضهم ويعجزون عنها، فيفتتها لهم. ويردد معهم الأهازيج والأرجاز لتنشيطهم للعمل.

من دلائل النبوة أثناء حفر الخندق:

أجرى الله سبحانه وتعالى على يدي نبيه محمد صلى الله عليه وسلم عدة معجزات أثناء حفر الخندق، ومن ذلك:

- عندما لحظ جابر بن عبد الله رضي الله عنه ما يعانيه الرسول صلى الله عليه وسلم من الجوع، استأذنه وذهب إلى زوجته وأخبرها بما رأى من المخمصة على الرسول صلى الله عليه وسلم وطلب منها أن تصنع له طعاماً، فذبح عناقاً له وطحنت زوجة صاعاً من شعير بقي لهما، وصنعت برمة، وذهب جابر فدعا النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطعام وساوره بكمية الطعام، وأنه طعيم يكفي لرجل أو رجلين، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم كل من كان حاضراً وعددهم ألف، وتحير جابر وزوجته، لكن النبي صلى الله عليه وسلم بارك في البرمة، فأكل منها كل الناس حتى شبعوا وتركوا فيها الكثير الذي أكل منه أهل جابر وأهدوا.
- أخبر عمار بن ياسر، وهو يحضر معهم الخندق، بأن ستقتله الفئة الباغية، فقتل في صفين وكان في جيش علي.
- وعندما اعترضت صخرة للصحابة وهو يحفرون، ضربها الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاث ضربات فتفتت. قال إثر الضربة الأولى: "الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمراء الساعة، ثم ضربها الثانية فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس والله إني لأبصر قصر المدائن أبيض،

معارك إسلامية

ثم ضرب الثالثة، وقال : الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن، والله إنني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذه الساعة".

وفي هذا الحديث بشارة بأن هذه المناطق سيفتحها المسلمون مستقبلاً، وكان موقف المؤمنين من هذه البشارة ما حكاه القرآن الكريم ﴿هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً﴾ (الأحزاب، الآية 22)، وموقف المنافقين الذين سخرُوا من البشارة: ﴿واذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً﴾ (الأحزاب، الآية 12).

وصورت الآيات من 13 إلى 20 من سورة الأحزاب نفسية المنافقين تصويراً دقيقاً، وحكت أقوالهم في الإرجاف والتخذيل، وأساليبهم في التهرب من العمل في حفر الخندق وجهاد العدو.

وعلى الرغم من تخذيل المنافقين وقلة الطعام وشدة البرد فقد تم حفر الخندق ليكون خط دفاع متيناً ثم جمع النساء والأطفال وأصحاب الأعدار في حصن فارع، وهو لبني حارثة، لأنه كان أمنع حصون المسلمين آنذاك.

وكانت خطة المسلمين أن يكون ظهرهم إلى جبل سلع داخل المدينة جوههم إلى الخندق الذي يحجز بينهم وبين المشركين الذين نزلوا رومة بني الجرف والغابة ونقمة.

وعندما نظر الرسول صلى الله عليه وسلم في حال العدو وحال المسلمين ورأى ضعف المسلمين وقوة المشركين، أراد أن يكسر شوكة المشركين، فبعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عباد زعيمي الأنصار، فاستشارهما في الصلح الذي عرضته عليه قبيلة غطفان، وهو أن يعطوا ثلث ثمار المدينة لعام كي ينصرفوا عن قتال المسلمين، ولم يبق إلا التوقيع على صحيفة الصلح فقال له : "لا والله ما أعطينا الدنيا من أنفسنا في الجاهلية فكيف وقد جاء الله بالإسلام". وفي رواية الطبراني أنهما قالاً : "يا رسول الله: أوحى من السماء فالتسليم لأمر الله، أو عن رأيك أو هواك ؟ فرأينا تبع هواك ورأيك، فإن كنت إنما تريد الإبقاء علينا، فوالله

معارك إسلامية

لقد رأيتنا وإياهم على سواء ما ينالون منا ثمرة إلا شراء أو قرى". فقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم المفاوضة مع الأعراب الذين كان يمثلهم الحارث الغطفاني، قائد بني مرة.

وفي الجانب الآخر أراد يهود بني النضير أن يجروا معهم إخوانهم يهود بني قريظة إلى نقض العهد والغدر بالمسلمين والوقوف مع الأحزاب. فأوفدوا حياً ابن أخطب للقيام بهذه المهمة. فجاء حيي إلى كعب بن أسد القرظي. وبعد حوار طويل بينهما أقنعه بنقض العهد مع المسلمين بحجة قوة الأحزاب ومقدرتهم على استئصال المسلمين، وأغراه بأن يدخل معه حصنه عندما ينصرف الأحزاب، بعد أداء مهمتهم.

وكان يوماً عصيباً من الدهر، ذلك اليوم الذي علم فيه المسلمون نقض بني قريظة ما بينهم وبين المسلمين من عهد. وتكمن خطورة ذلك في موقعهم الذي يمكنهم من تسديد ضربة غادرة للمسلمين من الخلف. فقد كانت ديارهم في العوالي، إلى الجنوب الشرقي للمدينة على وادي مهزور.

لقد أتاه الزبير بما يدل على غدرهم، ويومها قال له الرسول صلى الله عليه وسلم: "فداك أبي وأمي، إن لكل نبي حوارياً، وحواري الزبير".

لزيادة الحيطة والحذر والتأكد من مثل هذه الأمور الخطيرة، أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ وسعد بن عباد وعبد الله بن رواحة وخوات بن جبير، فجاءوا إلى بني قريظة وتحدثوا معهم، ووجدوهم قد نكثوا العهد ومزقوا الصحيفة التي بينهم وبين الرسول صلى الله عليه وسلم إلا بني سعية، فإنهم جاؤوا إلى المسلمين وفاء بالعهد. وعاد رسل المسلمين إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بالخبر اليقين.

معارك إسلامية

وعندما شاع هذا الخبر خاف المسلمون على ذراريهم من بني قريظة،
ومروا بوقت عصيب وابتلاء عظيم. ونزل القرآن واصفاً هذه الحالة:
﴿إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب
الحناجر وتظنون بالله الظنونا. هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً﴾
(الأحزاب، الآية 10).

فالذين جاؤوهم من فوقهم هم الأحزاب، وبنو قريظة من أسفل منهم،
والذين ظنوا بالله الظنونا هم المنافقون. أما المؤمنون فقد صمدوا لهذا الامتحان.
واتخذوا كل الوسائل الممكنة لاجتياز الامتحان، فنظموا فرقاً للحراسة، فكان
سلمة ابن أسلم الأوسي أمير لمائتي فارس وزيد بن حارثة أمير لثلاثمائة فارس،
يطوفون المدينة ويكبرون لإشعار بني قريظة باليقظة حتى لا تحدثهم أنفسهم بأن
يغدروا بالنزيرة التي في الحصون.

عندما وصلت الأحزاب المدينة فوجئوا بوجود الخندق، فقاموا بعدة
محاولات لاقتحامه، ولكنهم فشلوا لأن المسلمين كانوا يمطرونهم بوابل سهامهم
كلما هموا بذلك، ولذا استمر الحصار لمدة أربع وعشرين ليلة.

وذكر ابن إسحاق وابن سعد أن بعض المشركين اقتحموا الخندق، وعد
ابن إسحاق منهم: عمرو بن عبد ود وعكرمة بن أبي جهل وهبيرة بن أبي وهب
وضرار بن الخطاب والشاعر بن مرداس، وزاد ابن سعد واحداً على هؤلاء وهو نوفل
بن عبد الله. وذكر أن علياً بارز عمرو بن عبد ود -فارس قريش- وقتله، وأن الزبير
قتل نوفلاً وأن ثلاثة الآخرين فروا إلى معسكرهم.

وظلت مناوشات المشركين للمسلمين وتراشقهم معهم بالنبل دون انقطاع
طيلة مدة الحصار، حتى إنهم شغلوا المسلمين يوماً عن أداء صلاة العصر، فصلوها
بعد الغروب، وذلك قبل أن تشرع صلاة الخوف، حيث شرعت في غزوة ذات الرقاع
على رأي من يرى أن ذات الرقاع كانت بعد غزوة الخندق.

وقتل في هذه المناوشات ثلاثة من المشركين واستشهد ستة من المسلمين منهم سعد بن معاذ، الذي أصيب في أكحله -عرق في وسط الذراع- رماه حبان بن العرقة. وقد نصبت له خيمة في المسجد ليعوده الرسول صلى الله عليه وسلم من قريب، ثم مات بعد غزوة بني قريظة، حين انتقض جرحه وكانت تقوم على تمريره رفيعة الأسلمية.

وكان شعار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق وبني قريظة "حم، لا ينصرون".

لقد كفى الله المؤمنين القتال فهزم الأحزاب بوسيلتين: الأولى: تسخير الله نعيم بن مسعود ليخذل الأحزاب، والثانية: الرياح الهوجاء الباردة.

دور نعيم بن مسعود:

روى ابن إسحاق والواقدي وعبد الرزاق وموسى بن عقبة أن نعيم بن مسعود الغطفاني، أتى النبي صلى الله عليه وسلم مسلما وعرض عليه أن يقوم بتنفيذ أي أمر يريده النبي صلى الله عليه وسلم فقال له: "إنما أنت رجل واحد فينا، ولكن خذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة".

وقبل أن يعرف إسلام نعيم، أتى بني قريظة، فأقنعهم بعد التورط مع قريش في قتال حتى يأخذوا منهم رهائن، لكيلا يولوا الأدبار، ويتركوهم وحدهم يواجهون مصيرهم مع المسلمين بالمدينة. ثم أتى قريشا فأخبرهم أن بني قريظة قد ندموا على ما فعلوا، وأنهم قد اتفقوا سرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يختطفوا عددا من أشرف قريش وغطفان فيسلموهم له ليقتلهم دليلا على ندمهم، وقال لهم: فإن أرسلت إليكم يهود يلتمسون منكم رهنا من رجالكم فإياكم أن تسلموهم رجلا منكم. ثم أتى غطفان وقال لهم مثل الذي قاله لقريش. وبذلك زرع بذور الشك بينهم. وأخذ كل فريق يتهم الفريق الآخر بالخيانة.

هبّت ريح هوجاء في ليلة مظلمة باردة ، فقلبت قدور المشركين واقتلعت خيامهم وأطفأت نيرانهم ودفنت رحالهم ، فما كان من أبي سفيان إلا أن ضاق بها ذرعا فنادى في الأحزاب بالرحيل. وكانت هذه الريح من جنود الله الذين أرسلهم على المشركين ، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيرا ﴾ (الأحزاب، الآية 9).

وروى مسلم بسنده عن حذيفة بن اليمان طرفا مما حدث في تلك الليلة الحاسمة، قال حذيفة: لقد رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الأحزاب، وأخذتنا ريح شديدة وقر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألا رجل يأتني بخبر القوم، جعله الله معي يوم القيامة"، فسكتنا فلم يجبه منا أحد، ردد ذلك ثلاثا، ثم قال: "قم يا حذيفة فأتنا بخبر القوم"، فلم أجد بداً إذ دعاني باسمي أن أقوم. قال: "اذهب فأتني بخبر القوم ولا تذعرهم علي". فلما وليت من عنده جعلت كأنما أمشي في حمام، حتى أتيتهم ، فرأيت أبا سفيان يصلي ظهره بالنار، فوضعت سهما في كبد القوس، فأردت أن أرميه ، فذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ولا تذعرهم علي"، ولو رميته لأصبته ، فرجعت ، وأنا أمشي في مثل الحمام. فلما أتيتته فأخبرته بخبر القوم وفرغت، فألبسني رسول الله صلى الله عليه وسلم من فضل عبادة كانت عليه يصلي فيها. فلم أزل نائما حتى أصبحت فقال: قم يا نومان".

وزاد ابن إسحاق في روايته لهذا الخبر: "... فدخلت في القوم ، والريح جنود الله تفعل بهم ما تفعل لا تقر لهم قدرا ولا إناء ولا بناء ، فقام أبو سفيان، فقال: يا معشر قريش لينظر امرؤ من جلسه ؟ فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جانبي فقلت له: من أنت ؟ قال: فلان بن فلان. ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون ... فارتحلوا فإني مرتحل".

وفي رواية الحاكم والبزار: "... فانطلقت إلى عسكرهم فوجدت أبا سفيان يوقد النار في عصابة حوله، قد تفرق الأحزاب عنه، حتى إذا جلست فيهم فحسب أبو سفيان أنه دخل فيهم من غيرهم، قال: لياخذ كل رجل منكم بيد جليسه، فضربت بيدي على الذي على يميني وأخذت بيده، ثم ضربت بيدي على الذي عن يساري فأخذت بيده، فلبثت هنيهة، ثم قمت فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت: يا رسول الله: تفرق الناس عن أبي سفيان فلم يبق إلا عصابة توقد النار قد صب الله عليه من البرد مثل الذي صب علينا ولكننا نرجو من الله ما لا يرجون".

وختم الله هذا الامتحان الرهيب بهذه النهاية السعيدة، وجنب المسلمين شر القتال، قال تعالى معلقا على هذه الخاتمة: ﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا﴾ (الأحزاب، الآية 25). وكانت هذه الخاتمة استجابة لضراعة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الله أثناء محنة الحصار: "اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم"

لقد بذلت الأحزاب أقصى ما يمكنهم لاستئصال المسلمين، ولكن الله ردهم خائبين، وهذا يعني أنهم لن يستطيعوا أن يفعلوا شيئا في المستقبل، ولذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "الآن تغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم"؛ هذا علم من أعلام النبوة، لأن الذي حدث بعد هذا هو ما ذكره الرسول صلى الله عليه وسلم.

حكم وعبر في هزوة الخندق:

- إن حضر الخندق يدخل في مفهوم المسلمين لقوله تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ (الأنفال، الآية 10). فينبغي على المسلمين اتخاذ وسائل القوة المتاحة مهما كان مصدرها، لأن الحكمة ضالة المؤمن، فحيثما وجدها التقطها.
- لقد ضرب الرسول صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى للحكام والمحكومين في العدالة والمساواة وعدم الاستئثار بالراحة يوم وقف جنباً إلى جنب مع أفراد جيشه ليعمل بيده في حفر الخندق. وهذه هي صفة العبودية الحقّة التي تجلت في شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم.
- أعطى الرسول صلى الله عليه وسلم مثلاً آخر على رافته بالمؤمنين، يوم شاركهم في حفر الخندق ويوم أشركهم معه في طعيم جابر، ولم يستأثر به مع قلة من الصحابة. وفي ضوء هذه المعاني يفهم قول الله تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾.
- إن مجموعة المعجزات التي أجراها الله على يد نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أيام الخندق، سواء التي كانت في حفر الخندق أو تكثير طعيم جابر أو الرياح التي كانت نقمة على المشركين، فهي مجموعة أخرى في سلسلة المعجزات الكثيرة التي أيد الله بها نبيه، ليقطع الحجة لدى المعاندين من المنافقين والمشركين وكل صنف من أصناف أعداء الدين.
- إن الحكمة في استشاراته لبعض أصحابه في الصلح الذي اقترحته غطفان على الرسول صلى الله عليه وسلم، هو أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يريد أن يطمئن إلى مدى ما يتمتع به أصحابه من القوة المعنوية والاعتماد على نصر الله وتوفيقه على الرغم من ذلك الذي فوجئوا به من اجتماع أشتات المشركين عليهم في كثرة ساحقة، إلى جانب خذلان بني قريظة للمسلمين ونقض مواعيدهم معهم.

- وأما الدلالة التشريعية في هذه الاستشارة، فهي محصورة في مجرد مشروعية مبدأ الشورى في كل ما لا نص فيه. وهي بعد ذلك لا تحمل أي دلالة على جواز صرف المسلمين أعداءهم عن ديارهم إذا ما اقتحموها، باقتطاع شيء من أرضهم أو خيراتهم لهم. إذ إن مما هو متفق عليه في أصول الشريعة الإسلامية أن الذي يحتج به من تصرفاته صلى الله عليه وسلم إنما هو أقواله، وأفعاله التي قام بها، ثم لم يرد اعتراض عليها من الله في كتابة العزيز وليس في هذه الاستشارة دليل على جواز دفع المسلمين الجزية إلى أعدائهم. أما إذ الجئوا إلى اقتطاع جزء من أموالهم فعليهم التريص بأعدائهم لاسترداد حقهم المسلوب. عندما شغل المشركون الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه عن صلاة، صلوا قضاء بعد المغرب، وفي هذا دليل على مشروعية قضاء الفائتة.

غزوة بني قريظة

وقعت هذه الغزوة بعد غزوة الأحزاب مباشرة، في آخر ذي القعدة وأول ذي الحجة من السنة الخامسة الهجرية. وواضح من سير الأحداث أن سبب الغزوة كان نقض بني قريظة العهد الذي بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم، بتحريض من حيي بن أخطب النضري .

وقد أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم الزبير لمعرفة نيتهم، ثم أتبعه بالسعدين وابن رواحة وخوات لذات الهدف ليتأكد من غدرهم.

ولأن هذا النقض وهذه الخيانة قد جاءت في وقت عصيب، فقد أمر الله تعالى نبيه بقتالهم بعد عودته من الخندق ووضع السلاح، وامتنالاً لأمر الله أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يتوجهوا إلى بني قريظة، وتوكيدا لطلب السرعة أوصاهم قائلاً: "لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة" كما في رواية البخاري، أو الظهر كما في رواية مسلم.

وعندما أدركهم الوقت في الطريق، قال بعضهم: لا نصلي حتى نأتي قريظة، وقال البعض الآخر: بل نصلي، لم يرد منا ذلك، فنذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فلم يعنف واحدا منهم. وهذا اجتهاد منهم في مراد الرسول صلى الله عليه وسلم.

قال ابن حجر: "وقد جمع بعض العلماء بين الروایتين -البخاري ومسلم- باحتمال أن يكون بعضهم قبل الأمر كان صلى الظهر، وبعضهم لم يصلها، فقل لمن لم يصلها: لا يصلين أحد الظهر، ولمن صلاها: لا يصلين أحد العصر. وجمع بعضهم باحتمال أن تكون طائفة منهم راحت بعد طائفة فليل للطائفة الأولى الظهر وقيل للطائفة التي بعدها العصر، وكلاهما جمع لا بأس به".

خرج الرسول صلى الله عليه وسلم في ثلاثة آلاف مقاتل معهم ستة وثلاثون فرساً وضرب الحصار على بني قريظة لمدة خمس وعشرين ليلة على الأرجح، وضيق عليهم الخناق حتى عظم عليهم البلاء، فرغبوا أخيراً في الاستسلام، وقبل حكم الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم. واستشاروا في ذلك حليفهم أبا لبابة بن عبد المنذر رضي الله عنه، فأشار إلى أن ذلك يعني الذبح. وتقدم على هذه الإشارة، فربط نفسه إلى إحدى سوارى المسجد النبوي، حتى قبل الله توبته.

وعندما نزلوا على حكم الرسول صلى الله عليه وسلم أحب أن يكل الحكم عليهم إلى واحد من رؤساء الأوس، لأنهم كانوا حلفاء بني قريظة، فجعل الحكم فيهم إلى سعد بن معاذ، فلما دنا من المسلمين قال الرسول صلى الله عليه وسلم للأنصار: "قوموا إلى سيدكم أو خيركم، ثم قال: إن هؤلاء نزلوا على حكمكم". قال: تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم وتقسم أموالهم. فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "قضيت بحكم الله تعالى".

ونفذ الرسول صلى الله عليه وسلم حكم الله فيهم، وكانوا أربعمائة على الأرجح. ولم ينج إلا بعضهم، وهم ثلاثة، لأنهم أسلموا، فأحرزوا أموالهم، وربما نجا اثنان آخران منهم بحصولهم على الأمان من بعض الصحابة، أو لما أبدوه من التزام بالعهد أثناء الحصار. وربما نجا آخرون لا يتجاوزن عدد أفراد أسرة واحدة، إذ يفهم من رواية عند ابن إسحاق وغيره أن الرسول صلى الله عليه وسلم وهب لثابت بن قيس بن الشماس ولد الزبير بن باطا القرظي، فاستحياهم، منهم عبد الرحمن بن الزبير، الذي أسلم، وله صحبة.

وجمعت الأسرى في دار بنت الحارث النجارية، ودار أسامة بن زيد، وحضرت لهم الأخاديد في سوق المدينة، فسيقوا إليها المجموعة تلو الأخرى لتضرب أعناقهم فيها. وقتلت امرأة واحدة منهم، لقتلها خلاد بن سويد رضي الله عنه، حيث ألقى عليه، جرحى، ولم يقتل الغلمان ممن لم يبلغوا سن البلوغ. ثم قسم الرسول صلى الله عليه وسلم أموالهم وذراريهم بين المسلمين.

مصير بعض سبايا بني قريظة:

ذكر ابن إسحاق وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سعد بن زيد الأنصاري بسبايا من سبايا بني قريظة إلى نجد، فابتاع لهم بها خيلاً وسلاحاً. وذكر الواقدي في المغازي في شأن بيع سبايا بني قريظة قولين آخرين إضافة إلى ما ذكره ابن إسحاق، والقولان هما:

- بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن عبادة إلى الشام بسبايا لبييعهم ويشترى بهم سلاحاً وخيلاً.
- اشترى عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما جملة من السبايا ... إلخ. ويمكن الجمع بين هذه الأقوال الثلاثة بأن ذلك كله قد حدث.

واصطفى رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو بن خنافة، وأسلمت. وقد توفى عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي في ملك يمينه، وكان ذلك باختيارها.

أحكام وحكم ودروس وعبر من غزوة بني قريظة:

- جواز قتل من نقض العهد. ولا زالت الدول تحكم بقتل الخونة الذين يتواطؤون مع الأعداء حتى زماننا هذا.
- جواز التحكيم في أمور المسلمين ومهامهم. كما في تحكيم ابن معاذ.
- مشروعية الاجتهاد في الفروع، ورفع الحرج إذا وقع الخلاف فيها. فقد اجتهد الصحابة في تفسير قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "ألا لا يصلين أحد العصر أو الظهر إلا في بني قريظة"، ولم يخطئ الرسول صلى الله عليه وسلم أحداً منهم.

- ذكر النووي أن جماهير العلماء احتجوا بقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "قوموا إلى سيدكم أو خيركم" وغيره على استحباب القيام لأهل الفضل، وليس هذا من القيام المنهي عنه، وإنما ذلك فيمن يقومون عليه هو جالس ويمثلون قياماً طوال جلوسه، وقد وافق النووي جماهير العلماء في هذا، ثم قال: "القيام للقادم من أهل الفضل مستحب، وقد جاء في أحاديث، ولم يصح في النهي عنه شيء صريح. وقد جمعت كل ذلك مع كلام العلماء عليه في جزء وأجبت فيها عما توهم النهي عنه".
- قال الدكتور البوطي: وأعلم أن هذا كله لا يتنافى مع ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من أحب أن يتمثل له الناس قياماً فليتبوأ مقعده من النار"، لأن مشروعية إكرام الفضلاء لا تستدعي السعي منهم إلى ذلك أو تعلق قلوبهم بمحبته، بل إن من أبرز صفات الصالحين أن يكونوا متواضعين لإخوانهم زهاداً في طلب هذا الشيء... "غير أن من أهم ما ينبغي أن تعلمه في هذا الصدد أن لهذا الإكرام المشروع حدود إذا تجاوزها، انقلب الأمر محرماً، واشترك في الإثم كل من مقترفة والساكت عليه. فمن ذلك ما قد تجده في مجالس بعض المتصوفة من وقوف المريدين عليهم وهم جلوس، يقف الواحد منهم أمام شيخه في انكسار وذل... ومنه ما يفعله بعضهم من السجود على ركبة الشيخ أو يده عند قدومه عليه، أو ما يفعله من الحبو إليه عندما يغشى المجلس فالإسلام قد شرح مناهج للتربية وحظر على المسلمين الخروج عليها، وليس بعد الأسلوب النبوي في التربية من أسلوب يقر".

غزوة خيبر

لم يبد يهود خيبر عداء سافراً للمسلمين حتى لحق بهم زعماء بني النضير عندما أجلوا عن المدينة. وكما سبق وأن ذكرنا فقد كان أبرز زعماء بني النضير الذين غادروا المدينة ونزلوا خيبر: سلام بن أبي الحقيق وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب، فلما نزلوها دان لهم أهلها.

لقد نزلوا بأحقادهم ضد المسلمين، ولذا كانوا كلما وجدوا فرصة للانتقام من المسلمين انتهزوها، ووجدوا في قريش وبعض قبائل العرب حصان طروادة الذي سيدخلون به المدينة مرة أخرى، فألبوهم ضد المسلمين، ثم جروهم إلى غزوة الخندق، وسعوا في إقناع بني قريظة للانضمام إليهم والغدر بالمسلمين. ولذا كانت تلك العقوبة الرادعة التي أنزلها المسلمون بهم عندما صرف الله الأحزاب، وأرسل الرسول صلى الله عليه وسلم سرية عبد الله بن عتيك للقضاء على رأس من رؤوسهم أفلت من العقاب يوم قريظة، وهو سلام ابن أبي الحقيق، فقتلوه.

وكانت هدنة الحديبية فرصة أمام المسلمين لتصفية هذا الجيب الذي يشكل خطورة على أمن المسلمين، وقد وعد الله المسلمين بمغانم كثيرة يأخذونها إذا هزموا يهود خيبر، وإلى ذلك أشارت سورة الفتح التي نزلت في طريق العودة من الحديبية ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة، فعلم ما في قلوبهم، فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً، ومغانم كثيرة يأخذونها، وكان الله عزيزاً حكيماً، وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيماً، وأخرى لم تقدروا عليها، قد أحاط الله بها، وكان الله على كل شيء قديراً﴾ (الفتح، الآيات 18-21).

ذكر ابن إسحاق أنها كانت في المحرم من السنة السابعة الهجرية، وذكر الواقدي أنها كانت في صفر أو ربيع الأول من السنة السابعة بعد العودة من غزوة الحديبية، وذهب ابن سعد إلى أنها في جمادى الأولى سنة سبع، وقال الإمامان الزهري ومالك إنها في المحرم من السنة السادسة. وظاهر أن الخلاف بين ابن إسحاق والواقدي يسير، وهو نحو الشهرين، وكذلك فإن الخلاف بينهما وبين الإمامين الزهري ومالك مرجعه إلى الاختلاف في ابتداء السنة الهجرية الأولى كما سبق الإشارة إلى ذلك. وقد رجح ابن حجر قول ابن إسحاق على قول الواقدي.

أحداث الغزوة:

سار الجيش إلى خيبر بروح إيمانية عالية على الرغم من علمهم بمنعة حصون خيبر وشدة وبأس رجالها وعتادهم الحربي. وكانوا يكبرون ويهللون بأصوات مرتفعة، فطلب منهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يرفقوا بأنفسهم قائلاً: "إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم". وسلكوا طريقاً بين خيبر وغطفان ليحولوا بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر لأنهم كانوا أعداء للمسلمين.

ونزل المسلمون بساحة اليهود قبل بزوغ الفجر، وقد صلى المسلمون الفجر قرب خيبر، ثم هجموا عليها بعد بزوغ الشمس، وفوجئ أهلها بهم وهم في طريقهم إلى أعمالهم، فقالوا: محمد والخميس!! فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: "الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين".

وهرب اليهود إلى حصونهم وحاصرهم المسلمون. وقد حاولت غطفان نجدة حلفائهم يهود خيبر، حتى إذا ساروا مرحلة سمعوا خلفهم في أموالهم وأهليهم حساً فظنوا أن المسلمين قد خالفوا إليهم فرجعوا، وخلوا بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين خيبر، فأخذ المسلمون في افتتاح حصونهم واحداً تلو الآخر.

معارك إسلامية

وكان أول ما سقط من حصونهم ناعم والصعب بمنطقة النطاة وأبي النزار بمنطقة الشق، وكانت هاتان المنطقتان في الشمال الشرقي من خيبر، ثم حصن القموص المنيع في منطقة الكتيبة، وهو حصن ابن أبي الحقيق، ثم اسقطوا حصني منطقة الوطيح والسلالم.

وقد واجه المسلمون مقاومة شديدة وصعوبة كبيرة عند فتح بعض هذه الحصون، منها حصن ناعم الذي استشهد تحته محمود بن مسلمة الأنصاري، حيث ألقى عليه مرحب رحي من أعلى الحصن، والذي استغرق فتحه عشرة أيام، فقد حمل راية المسلمين عند حصاره أبو بكر الصديق، ولم يفتح الله عليه، وعندما جهد الناس، قال رسول الله إنه سيدفع اللواء غداً إلى رجل يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله، ولا يرجع حتى يفتح له، فطابت نفوس المسلمين، فلما صلى الفجر في اليوم التالي دفع اللواء إلى علي، ففتح الله على يديه.

وكان علي يشتكي من رمد في عينيه عندما دعاه الرسول صلى الله عليه وسلم، فبصق رسول الله صلى الله عليه وسلم في عينيه ودعا له، فبرئ.

ولقد أوصى الرسول صلى الله عليه وسلم علياً بأن يدعو اليهود إلى الإسلام قبل أن يداهمهم، وقال له: "فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم". وعندما سأله علي: يا رسول الله، على ماذا أقاتل الناس؟ قال: "قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله".

وعند حصار المسلمين لهذا الحصن برز لهم سيده وبطلهم مرحب، وكان سبباً في استشهاد عامر بن الأكوع، ثم بارزه علي فقتله، مما أثر سلباً في معنويات اليهود ومن ثم هزيمتهم.

وقد أبلى علي بلاء حسناً في هذه الحرب. ومن دلائل ذلك: روى ابن إسحاق من حديث أبي رافع - مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم - أن علياً عندما دنا من الحصن خرج إليه أهله، فقاتلهم، فضربه رجل من يهود فطرح ترسه من يده، فتناول علي باباً كان عند الحصن فترس به عن نفسه، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه، ثم ألقاه من يده حين فرغ.

قال الراوي أبو رافع: فلقد رأيتني في نفر سبعة معي، أنا ثامنهم، نجهد على أن نقلب ذلك الباب، فما نقلبه.

وروى البيهقي من طريقين مرفوعين إلى جابر رضي الله عنه قصة علي والباب ويوم خيبر. ففي الطريق الأول أن علياً رضي الله عنه حمل الباب حتى صعد عليه المسلمون فافتتحوها، ولم يستطع أربعون رجلاً أن يحملوا هذا الباب. وفي الطريق الثانية أنه اجتمع عليه سبعون رجلاً، فأعادوه إلى مكانه بعد أن أجهدهم.

وتوجه المسلمون إلى حصن الصعب بن معاذ بعد فتح حصن ناعم، وأبلى حامل رايتهم الحباب بن المنذر بلاء حسناً حتى افتتحوه بعد ثلاثة أيام، ووجدوا فيه الكثير من الطعام والمتاع، يوم كانوا في ضائقة من قلة الطعام، ثم توجهوا بعده إلى حصن قلعة الزبير الذي اجتمع فيه الفارون من حصن ناعم والصعب وبقية ما فتح من حصون يهود - فحاصروه وقطعوا عنه مجرى الماء الذي يغذيه، فاضطروهم إلى النزول للقتال، فهزموهم بعد ثلاثة أيام، وبذلك تمت السيطرة على آخر صحون منطقة النطااة التي كان فيها أشد اليهود.

معارك إسلامية

ثم توجهوا إلى حصون الشق، وبدأوا بحصن أبي، فاقتحموه، وأفلت بعض مقاتلته إلى حصن نزار، وتوجه إليهم المسلمون فحاصروهم ثم افتتحوا الحصن، وفر بقية أهل الشق من حصونهم وتجمعوا في حصن القموص المنيع وحصن الوطيح وحصن السلا، فحاصروهم المسلمون لمدة أربعة عشر يوماً حتى طلبوا الصلح.

نتائج الغزوة:

وهكذا فتحت خيبر عنوة، استناداً إلى النظر في مجريات الأحداث التي سقناها، وما روى البخاري، ومسلم وأبو داود من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غزا خيبر وافتتحها عنوة.

فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر قذف الله الرعب في قلوب أهل فدك فقبل ذلك منهم. فكانت فدك لرسول الله صلى الله عليه وسلم خالصة لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب.

وقتل من اليهود في معارك خيبر ثلاثة وتسعون رجلاً. وسببت النساء والذراري، منهن صفية بنت حيي بن أخطب، التي اشتراها الرسول صلى الله عليه وسلم من دحية حيث وقعت في سهمه فأعتقها وتزوجها. وقد دخل عليها في طريق العودة إلى المدينة، وتطوع لحراسته في تلك الليلة أبو أيوب الأنصاري.

واستشهد من المسلمين عشرون رجلاً فيما ذكر ابن إسحاق وخمسة عشر فيما ذكر الواقدي.

وممن استشهد من المسلمين راعي غنم أسود كان أجيراً لرجل من يهود. وخلاصة قصته أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو محاصر لبعض حصون خيبر ومعه غنم يرعاها لبعض يهود خيبر، فطلب من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعرض عليه الإسلام، فعرضه عليه، فأسلم، ثم استفتاه في أمر الغنم،

فطلب منه الرسول صلى الله عليه وسلم أن يضرب وجوهها، فسترجع إلى أصحابها، فأخذ الراعي حفنة من الحصى فرمى بها في وجوهها، فرجعت إلى أصحابها، وتقدم ليقاتل فأصابه حجر فقتله، وما صلى لله صلاة قط، فجيء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسجى بشملة، فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أعرض عنه، وعندما سئل عن إعراضه قال إن معه الآن زوجتيه من الحور العين.

واستشهد أعرابي له قصة دلت على وجود نماذج فريدة من المجاهدين. وخلاصة قصته أنه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسلم، وطلب أن يهاجر مع الرسول صلى الله عليه وسلم. فلما كانت غزوة خيبر -وقيل حنين- غنم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخرج له سهمه، وكان غائباً حين القسمة ويرعى ظهرهم، فلما جاء دفعوا إليه سهمه، فأخذه وجاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال: ما هذا يا محمد؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم: "قسم قسمته لك". قال: ما على هذا اتبعتك، ولكن اتبعتك على أن أرمى ها هنا، وأشار إلى حلقه بسهم، فأدخل الجنة، قال: "إن تصدق الله يصدقك"، ولم يلبث قليلاً حتى جيء به وقد أصابه سهم حيث أشار، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: "صدق الله فصدقته"، فكفنه الرسول صلى الله عليه وسلم في جبة للنبي صلى الله عليه وسلم ودفنه.

وبعد الفراغ من هذه الغزوة حاول اليهود قتل الرسول صلى الله عليه وسلم بالسم. فقد أهدته امرأة منهم شاة مشوية مسمومة، واكثرت السم في ذراع الشاة عندما عرفت أنه يحبه، فلما أكل من الذراع أخبرته الذراع أنه مسموم فلفظ اللقمة، واستجوب المرأة، فاعترفت بجريمتها، فلم يعاقبها في حينها، ولكنه قتلها عندما مات بشر بن البراء بن معرور من أثر السم الذي ابتلعه مع الطعام عندما أكل مع الرسول صلى الله عليه وسلم.

وتم الصلح في النهاية بين الطرفين وفق الأمور الآتية:

- بالنسبة للأراضي والنخيل - أي الأموال الثابتة -: دفعها لهم الرسول صلى الله عليه وسلم على أن يعملوا عليها ولهم شطر ما يخرج منها.
- أن يتفقوا من أموالهم على خدمة الأرض.
- أما بالنسبة لوضعهم القانوني فقد تم الاتفاق على أن بقاءهم بخيبر مرهون بمشيئة المسلمين، فمتى شاؤوا أخرجوهم منها. وقد أخرجهم عمر بن الخطاب إلى تيماء وأريحاء، استناداً إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم في مرض موته: "أخرجوا المشركين من جزيرة العرب" وتكرر منهم الاعتداء على المسلمين. ففي المرة الأولى اتهمهم الرسول صلى الله عليه وسلم في قتل عبد الله بن سهل، فأنكروا فلم يعاقبهم، فوداه رسول الله صلى الله عليه وسلم من عنده. وفي هذه المرة الثانية أكدت الأولى - كما أشار عمر - أنهم اعتدوا على عبد الله بن عمر، وفدعوا يديه.
- واتفقوا على إيفاد مبعوث من قبل النبي صلى الله عليه وسلم إلى أهل خيبر ليخرص ويقبض حصة المسلمين.

أما بالنسبة للأموال المنقولة، فقد صالحوه على أن له الذهب والفضة والسلاح والدروع، لهم ما حملت ركائبهم على ألا يكتموا ولا يغيبوا شيئاً، فإن فعلوه فلا ذمة لهم ولا عهد. فغيبوا مسكاً لحبي بن أخطب، وقد كان قتل في غزوة خيبر، وكان قد احتمله معه يوم بني النضير حين أجليت.

وعندما سأل الرسول صلى الله عليه وسلم سعية - عم حبي - عن المسك، قال: "أذهبته الحروب والنفقات" فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "العهد قريب المال أكثر من ذلك"، فدفعه النبي صلى الله عليه وسلم إلى الزبير فمسه بعذاب، فاعترف بأنه رأى حياً يطوف في خربة ها هنا، فوجدوا المسك فيها، فقتل لذلك ابني أبي الحقيق، وسبى نساءهم وذرايهم، وقتل محمد بن مسلمة ابن عم كنانة هذا الذي دل على المال، قتله بأخيه محمود بن مسلمة.

وبالنسبة للطعام فقد كان الرجل يأخذ حاجته منه دون أن يقسم بين المسلمين أو يخرج منه الخمس ما دام قليلاً، وكانت غنائم خيبر خاصة بمن شهد الحديبية من المسلمين، كما في قوله تعالى: ﴿سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا تتبعكم، يريدون أن يدلوا كلام الله. قل لن تتبعونا كذلك قال الله من قبل، فسيقولون بل تحسدوننا، بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً﴾. ولم يغب عن فتح خيبر من أصحاب بيعة الرضوان أحد سوى جابر بن عبد الله، ومع ذلك أعطي سهماً مثل من حضر الغزوة - غزوة الحديبية.

وأعطى أهل السفينة من مهاجرة الحبشة الذين عادوا منها إلى المدينة، ووصلوا خيبر بعد الفتح، أعطاهم من الغنائم. وكانوا ثلاثة وخمسين رجلاً وامرأة بقيادة جعفر بن أبي طالب. وتقول الرواية: إنه لم يقسم لأحد لم يشهد الفتح سواهم. وهم الذين فرح الرسول صلى الله عليه وسلم بقدمهم، وقبل جعفر بين عينيه والتزمه، وقال: "ما أدري بأيهما أنا أسر، بفتح خيبر أو بقدم جعفر".

وربما يرجع سبب استثنائهم إلى أنهم حبسهم العذر عن شهود بيعة الحديبية، ولعله استرضى أصحاب الحق من الغانمين في الإسهام لهم، ولعله رأى ما كانوا عليه من الصدق وما عانوه في الغربة، وهم أصحاب الهجرتين.

وأعطى الرسول صلى الله عليه وسلم أبا هريرة وبعض الدوسيين من الغنائم برضاء الغانمين، حيث قدموا عليه بعد فتح خيبر.

وشهد خيبر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نساء مسلمات فأعطاهن من الفتيء ولم يضرب لهن بسهم.

وكذلك أعطى من شهدها من العبيد، فقد أعطى عميراً، مولى أبي اللحم، شيئاً من الأثاث. وأوصى صلى الله عليه وسلم من مال خيبر لنضر من الدارين، سماهم ابن إسحاق.

معارك إسلامية

وكان كفار قريش يتحسسون أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم مع يهود خيبر، ويسألون الركبان عن نتيجة المعركة، وقد فرحوا عندما خدعهم الحجاج بن علاط السلمي وقال لهم: إن المسلمين قد هزموا شر هزيمة وإن اليهود أسرت محمداً، وستأتي به ليقتل بين ظهرائي أهل مكة ثاراً لمن كان أصيب من رجالهم، وما لبثوا قليلاً حتى علموا بأن الأمر خدعة من الحجاج بن علاط ليحرز ماله الذي بمكة ويهاجر مسلماً. فحزنوا لتلك النتيجة التي كانوا يراهنون على عكسها.

وبعد الفراغ من أمر خيبر توجه رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو وادي القرى، وحاصره، ثم دعاهم إلى الإسلام وأخبرهم أنهم إذا أسلموا أحرزوا أموالهم وحققوا دماءهم وحسابهم على الله، فبرز رجل منهم، فبرز له الزبير فقتله، ثم برز آخر فبرز إليه أبو دجانة فقتله، حتى قتل منهم أحد عشر رجلاً، ثم قاتلهم حتى أمسوا، وفي الصباح استسلموا، ففتحت عنوة. وأقام فيها ثلاثة أيام، وقسم ما أصاب على أصحابه، وترك الأرض والنخل بأيدي يهود، وعاملهم عليها.

فلما بلغ يهود تيماء ما حدث لأهل فدك ووادي القرى، صالحو رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجزية، وأقاموا بأيديهم أموالهم. فلما كان عهد عمر أخرج يهود خيبر وفدك ولم يخرج أهل تيماء ووادي القرى لأنهما داخلتان في أرض الشام، ويرى أن ما دون وادي القرى إلى المدينة حجاز، وأن ما وراء ذلك من الشام.

وثبت في الصحيح أن مدعماً -مولي رسول الله صلى الله عليه وسلم- أصابه سهم فقتله وذلك حين كان يحط رحل رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما وصلوا وادي القرى، فقال الناس: هنيئاً له بالجنة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلاً والذي نفسي بيده، إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم، لتشتعل عليه ناراً. فجاء رجل حين سمع ذلك من النبي صلى الله عليه وسلم بشراك أو بشراكين، فقال: هذا شيء كنت أصبته، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "شراك أو شراكين من نار".

بعض فقه وحكم ودروس خزانة خير:

- نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغلول: وأن من يموت وهو غال يدخل النار. وقد جاء ذلك في خبر الرجل الذي قال عنه الصحابة إنه شهيد، فقال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم: "كلا ! إني رأيته في النار في بردة غلها أو عباءة ... " وخبر مدغم مع الشملة.
- نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل لحوم الحمر الإنسية.
- نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل لحوم البغال.
- النهي عن أكل كل ذي ناب من السباع وعن أكل كل ذي مخلب من الطير.
- النهي عن وطء الحبالى من السبايا حتى يضعن.
- النهي عن ركوب الجلالة والنهي عن أكل لحمها وشرب لبنها.
- النهي عن النهبة من الغنيمة قبل قسمتها.
- وأجرى الله على نبيه بعض المعجزات دليلاً على نبوته وعبرة لمن يعتبر، فإضافة إلى ما ذكرنا من قصة بصقه على عيني علي فصحتا، وإخبار ذراع الشاة المسمومة إياه بأنها مسمومة، فقد ثبت أنه نقت ثلاث نفثات في موضع ضربة أصابت ركبة سلمة بن الأكوع يوم خير، فما اشتكى بعدها.
- وفي خبر الإسهام لأهل السفينة أنه إذا لحق مدد الجيش بعد انقضاء الحرب، فلا سهم لهم إلا بإذن الجيش ورضاه.
- جواز المساقاة والمزارعة بجزء مما يخرج من الأرض من تمر أو زروع، كما عامل رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل خير على ذلك، وهو من باب المشاركة، وهو نظير المضاربة، فمن أباح المضاربة، وحرم ذلك، فقد فرق بين متماثلين.
- عدم اشتراط كون البئر من رب الأرض، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم
- دفع إليهم الأرض على أن يعملوها من مالهم.

معارك إسلامية

- خرص الثمار على رؤوس النخيل وقسمتها كذلك، وأن القسمة ليست بيعاً، والاكتفاء بخارص واحد وقاسم واحد.
- جواز عقد المهادنة عقداً جائزاً للإمام فسخه متى شاء.
- جواز تعليق عقد الصلح والأمان بالشرط، كما عقد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشرط ألا يغيبوا ولا يكتموا، كما في قصة مسك حيي.
- الأخذ في الأحكام بالقرائن والإمارات كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لكنانة: "المال كثير والعهد قريب"، فاستدل بذلك على كذبه في قوله: "أذهبته الحروب والنفقة".
- جواز إجلاء أهل الذمة من دار الإسلام إذا استغنى عنهم، وقد أجلاهم عمر رضي الله عنه بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم.
- لم يكن عدم أخذ الجزية من يهود خيبر لأنهم ليسوا أهل ذمة، بل لأنها لم تكن نزل فرضها بعد.
- سريان نقض العهد في حق النساء والذرية، وجعل حكم الساكت والمقر حكم الناقض والمحارب كما في حالة كنانة وابني ابن الحقيق، على أن يكون الناقضون طائفة لهم شوكة ومنعة، أم إذا كان الناقض واحداً من طائفة لم يوافقه بقيتهم، فهذا لا يسري النقض إلى زوجته وأولاده.
- جواز عتق الرجل أمته، وجعل عتقها صداقها، ويجعلها زوجته بغير إذنها ولا شهود ولا ولي غيره، ولا لفظ نكاح ولا تزويج، كما فعل صلى الله عليه وسلم بصفية.
- جواز كذب الإنسان على نفسه وعلى غيره، إذا لم يتضمن ضرر ذلك الغير، إذا كان يتوصل بالكذب إلى حقه، كما كذب الحجاج بن علاط على المسلمين والمشركين حتى أخذ ماله من مكة من غير مضرة لحقت بالمسلمين من ذلك بالكذب.

معارك إسلامية

- إن من قتل غيره بسم يقتل مثله قصاصاً، كما قتلت اليهودية ببشر بن البراء.
- جواز الأكل من ذبائح أهل الكتاب وحل طعامهم وقبول هديتهم، كما في حادثة الشاة المسمومة.
- الإمام مخير في الأرض التي تفتح عنوة إن شاء قسمها وإن شاء وقفها وإن شاء قسم البعض ووقف البعض الآخر، وقد فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنواع الثلاثة، فقسم قريظة والنضير، ولم يقسم مكة، وقسم شطراً من خيبر وترك شطرها الآخر.

خيبر... اليهود خسر ونقض للعهد:

أصبحت المدينة منذ أن حل بها النبي صلى الله عليه وسلم بعد هجرته المباركة منزل الوحي، ومعقل الإسلام، وعاصمة الدولة الوليدة، واتخذ النبي من المسجد الذي بناه مقراً لإدارة شئون المسلمين، فلم تقتصر وظيفته على أداء الصلوات، وإنما امتدت ليصبح مدرسة تخرج فيها الرعيل الأول من قادة المسلمين وحملة ألويته ودعائه المخلصين، ومكاناً تُعقد فيه الجلسات، وتُستقبل فيه الوفود والسفراء.

علاقة المسلمين بجيرانهم:

وكان من الإجراءات التي اتخذها النبي صلى الله عليه وسلم لسلامة بناء مجتمع النبوة الناشئ، أن كتب وثيقة خالدة تحدد العلاقات والحقوق والواجبات بين سكانها جميعاً، مسلمين وغير مسلمين، فقررت الصحيفة حرية الدين لليهود ولقبائلهم ويطونهم التي سبق أن تحالفت معها بطون الأوس والخزرج، شريطة مراعاة حقوق المواطنة، والابتعاد عما يخل بالنظام، حيث جاء في الوثيقة: "وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين، ولا متناصر عليهم، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم..."

غدر اليهود ونقضهم للعهد:

غير أن اليهود لم يلتزموا بما تعاهدوا عليه، ولم يحترموا نصوص الوثيقة التي تنظم الحياة في المدينة، وإنما غدروا وخانوا، ونقضوا العهد، وهموا بقتل النبي صلى الله عليه وسلم لولا أن عصمه الله منهم، وسعوا بالوقعة بين الأوس والخزرج، وكادت تحدث فتنة بينهما لولا أن تداركتها حكمة النبي صلى الله عليه وسلم البالغة، ونقضوا عهدهم مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة الخندق، وكاد الأمر يتحول إلى كارثة تحل بالمسلمين بعد أن أصبحوا محاصرين من الأحزاب ويهود بني قريظة.

لكل هذا لم يجد النبي صلى الله عليه وسلم بداً من إخراجهم من المدينة أو إنزال أقسى العقوبة بهم؛ حماية للدولة، وحفاظاً على أمن المسلمين وسلامتهم، وتوحيداً للصف، فأجلى النبي صلى الله عليه وسلم يهود بني قينقاع من المدينة في العام الثاني من الهجرة، ثم تبعهم يهود بني النضير في السنة الرابعة من الهجرة، ثم قضى على يهود بني قريظة في العام الخامس من الهجرة لخيانتهم له صلى الله عليه وسلم، وتعريضهم المدينة للدمار وأهلها للفتك والقتل لو نجح المشركون في اقتحام المدينة في غزوة الأحزاب.

ولم يبق لليهود سوى خيبر، وهي قرية كبيرة تقع شمال شرقي المدينة بنحو 180 كم، يسكنها بعض اليهود الذين لم تبد منهم بادرة سوء للمسلمين، أو يؤخذ عليهم أنهم حاربوا الله ورسوله، ولم يُسمع أنهم اشتركوا في مؤامرة من المؤامرات التي كانوا لا يتوانون في إعدادها للنبي صلى الله عليه وسلم؛ ولهذا احترم النبي صلى الله عليه وسلم موقفهم وحيادهم، غير أنهم تبدلوا وجعلوا من بلدهم مركزاً لتجمع اليهود، فنزل عندهم يهود بني قينقاع وبني النضير، وصاروا يهددون المسلمين بمؤامراتهم، وأصبحوا خطراً على أمن الدولة الإسلامية، ولا سيما أن خيبر تقع على الطريق المؤدي إلى الشام، فلزم تطهير ذلك الطريق من خطر هؤلاء، والقيام بتصفية بقايا الوجود اليهودي في شبه الجزيرة العربية؛ لتسلم قاعدة الإسلام الأساسية ومنطلقه من عدو ماكر.

الخروج إلى خيبر:

لم يكد النبي صلى الله عليه وسلم يعود من الحديبية ويستريح بالمدينة شهراً أو نحوه، حتى خرج إلى خيبر، في المحرم من العام السابع للهجرة، في ألف وستمئة مقاتل، وكان يهود خيبر من أشد الطوائف اليهودية بأساً وأكثرهم مالاً، وأمنعهم حصوناً، وأكثرهم سلاحاً، حتى إن قريش وعرب الجزيرة وقفوا ينتظرون ما يسفر عنه التقاء القوتين. وفي الوقت نفسه استعد المسلمون استعداداً حسناً، فاشتراط النبي صلى الله عليه وسلم ألا يخرج معه إلا من شهد الحديبية، وهم صفوة المسلمين، وخالصة فرسانهم وأبطالهم الشجعان، يغمرهم إيمان عامر، وحب للشهادة في سبيل الله، وثقة في نصر الله لهم.

وكانت خيبر مكونة من ثلاث مناطق تضم قلاعهم وحصونهم، وتمتلى بنحو عشرة آلاف مقاتل، والمناطق الثلاث هي:

- منطقة النطا، وبها حصن ناعم، وعليه "مرحب"، وهو واحد من أبرز زعماء خيبر وفرسانها، بالإضافة إلى حصنين آخرين، هما: حصن الصعب بن معاذ، وحصن قلعة الزبير.
- منطقة الشق، وبها حصنان.
- منطقة الكتبة، وبها حصن "القموص" لبني الحقيق من يهود بني النضير، وحصنان آخران.

خطة الفتح:

أعاد النبي صلى الله عليه وسلم توزيع جيشه، فقسمه أربع فرق: واحدة بقيادة أبي بكر الصديق، والثانية بقيادة عمر بن الخطاب، والثالثة بقيادة سعد بن عباد، والرابعة بقيادة الحُبَاب بن المنذر، وأمر على الجيش علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم جميعاً.

مطاردة إسلامية

وكان حصن "ناعم" أول حصن يتعرض له المسلمون بالهجوم، وكان محصناً تحصيناً منيعاً، ودار أمامه قتال عنيف دون أن يتمكن المسلمون من اقتحامه؛ نظراً لاستماتة المدافعين عنه، واستمر القتال طوال اليوم دون تحقيق نصر، وجرح من المسلمين خمسون، واستشهد واحد منهم، وفي اليوم التالي خرج "مرحب" قائد الحصن مختالاً بقوته وسلاحه، ودعا المسلمين إلى المبارزة، فبرز إليه محمد بن مسلمة ونجح في قتله، وقيل قتله علي بن أبي طالب، وتمكن أبطال المسلمين من قتل إخوة مرحب وكانوا أبطالاً صناديد، وكان لقتلهم أثر في إضعاف معنويات المدافعين عن الحصن، وبعد قتال دام خمسة عشر يوماً تمكن المسلمون بقيادة علي بن أبي طالب من فتح الحصن، والاستيلاء عليه، وفر من بقي من اليهود إلى حصن "صعب"، وكان حصناً منيعاً هو الآخر، وأوكل النبي صلى الله عليه وسلم مهمة فتح هذا الحصن إلى الحباب بن المنذر الذي نجح في اقتحامه بعدما أبلى المسلمون بلاءً حسناً، واستولى على ما في الحصن من أسلحة وعتاد، وكانت كثيرة جداً، حيث كان يعد هذا الحصن مخزناً لأسلحة يهود خيبر، ومعداتهم الحربية من سيوف ودروع ومجانيق.

ويسقوط هذين الحصنين علت كفة المسلمين في الحرب، وأيقن اليهود أنهم لا قبل لهم بالمواجهة العسكرية، فطلبوا الصلح، فأجابهم النبي صلى الله عليه وسلم عليه، وعقد معهم معاهدة كان من بنودها أن يجلوا عن خيبر إلى الشام، ويسلموا قلاعهم وحصونهم إلى المسلمين بما فيها من أسلحة وعتاد، لكنهم طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يظلوا يعملون في أرض خيبر مقابل نصف ما تنتجه، وأن يكونوا في حمى المسلمين وتحت حكمهم، فقبل النبي صلى الله عليه وسلم منهم ذلك.

وعلى الرغم من تحقيق هذا النصر العظيم، فإن النبي صلى الله عليه وسلم عامل اليهود معاملة حسنة، ولم يقابل إساءاتهم بإساءة، فرد عليهم صحفاً من توراتهم حين طلبوها منه، وكانت قد وقعت فيما وقع من غنائم للمسلمين، ولم يصنع النبي مثلما صنع الرومان حين فتحوا أورشليم؛ حيث أحرقوا الكتب المقدسة.

نتائج هذا الفتح:

كان من نتائج هذا الفتح أن صالح يهود "فدك" النبي صلى الله عليه وسلم على أن يحقن دماءهم، وكذلك فعل يهود "تيماء" و"وادي القرى"، فصالحوه على دفع الجزية، ويقوا في بلادهم آمنين.. وبهذا النصر المبين دان اليهود كلهم للإسلام، وانتهى ما كان لهم من نفوذ وجاه، ولم تقم لهم قائمة بعد، وبهذا أصبحت الدولة الإسلامية بمأمن من ناحية الشمال إلى بلاد الشام.

فتح مكة

بعد صلح الحديبية انضمت قبيلة بكر لقريش، وانضمت قبيلة خزاعة لحلف المسلمين. وكان بين بني بكر وقبيلة خزاعة ثارات في الجاهلية ودماء، وذات يوم تعرضت قبيلة خزاعة لعدوان من قبيلة بكر الموالية لقريش، وقتلوا منهم نحو عشرين رجلاً. ودخلت خزاعة الحرم للنجاة بنفسها، ولكن بني بكر لاحقوهم وقتلوا منهم في الحرم. فجاء عمرو بن سالم الخزاعي الرسول صلى الله عليه وسلم يخبرهم بعدوان قبيلة بكر عليهم، وأنشد الرسول صلى الله عليه وسلم شعراً:

يا رب انسي ناسد محمداً	حلف أبينا وأبيه الأتليدا
إنه قريش أخلفوك لموعدا	ونقضوا ميثاقك المؤكدا
فانصر رسول الله نصراً اعتدا	وادع عباد الله يأتوا مدداً

فقال له رسول الله عليه وسلم: "نصرت يا عمرو بن سالم، والله لأمنعنكم مما أمتع نفسي منه". ودعا الله قائلاً "اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها".

وندمت قريش على مساعدتها لبني بكر، ونقضها للعهد، فأرسلت أبا سفيان إلى المدينة ليصلح ما فسد من العهد، ولكنه عاد خائباً إلى مكة.

وأخذ رسول الله عليه وسلم يجهز الجيش للخروج إلى مكة. فحضرت جموعٌ كبيرة من القبائل.

ولكن حدث شيء لم يكن متوقعاً من صحابي. وهو أن الصحابي حاطب بن أبي بلتعة كتب كتاباً بعث به إلى قريش مع امرأة، يخبرهم بما عزم عليه رسول الله عليه وسلم، وأمرها أن تخفي الخطاب في صفائر شعرها حتى لا يراها أحد. فإذا الوحي ينزل على رسول الله عليه وسلم بما صنع حاطب، فبعث الرسول صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب والزبير بن العوام ليلحقا بالمرأة. وتم

القبض عليها قبل أن تبلغ مكة، وعثرا على الرسالة في ضفائر شعرها. فلما عاتب النبي صلى الله عليه وسلم حاطباً اعتذر أنه لم يفعل ذلك ارتداداً عن دينه، ولكنه خاف إن فشل رسول الله عليه وسلم على أهله والذين يعيشون في مكة. فقال عمر: "يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق". فقال رسول الله عليه وسلم: "إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله قد اطلع على من شهد بدرًا فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم".

وكان حاطب ممن حارب مع رسول الله عليه وسلم في غزوة بدر. فعفا عنه، وتحرك جيش المسلمين بقيادة رسول الله عليه وسلم إلى مكة في منتصف رمضان من السنة الثامنة للهجرة. وبلغ عددهم نحو عشرة آلاف مقاتل. ووصلوا "مر الظهران" قريباً من مكة، فنصبوا خيامهم، وأشعلوا عشرة آلاف شعلة نار. فأضاء الوادي.

وهناك تقابل العباس بن عبد المطلب وأبو سفيان. فأخذه العباس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام: "ويحك يا أبا سفيان أما آن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟". فقال العباس: "والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد". قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ويحك ألم يأن لك أن تعلم أنني رسول الله؟" فقال: "أما هذه فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً". وبعد حوارٍ طويلٍ دخل أبو سفيان في الإسلام. وقال العباس: "إن أبا سفيان يحب الفخر فاجعل له شيئاً". فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن".

وأراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يري أبا سفيان قوة المسلمين، فحبسه عند مضيق الجبل. ومرت القبائل على راياتها، ثم مر رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتيبته الخضراء. فقال أبو سفيان: ما لأحدٍ بهؤلاء من قبل ولا طاقة.

معارك إسلامية

ثم رجع أبو سفيان مسرعاً إلى مكة، ونادى بأعلى صوته: "يا معشر قريش، هذا محمدٌ قد جاءكم فيما لا قبل لكم به. فمن دخل داري فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن". فهرع الناس إلى دورهم وإلى المسجد. وأغلقوا الأبواب عليهم وهم ينظرون من شقوقها وثقوبها إلى جيش المسلمين، وقد دخل مرفوع الجباه. ودخل جيش المسلمين مكة في صباح يوم الجمعة الموافق عشرين من رمضان من السنة الثامنة للهجرة. ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة من أعلاها وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ (الفتح، الآية 1). واستسلمت مكة، وأخذ المسلمون يهتفون في جنبات مكة وأصواتهم تشق عناء السماء: الله أكبر.. الله أكبر.

وتوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحرم، وطاف بالكعبة، وأمر بتحطيم الأصنام المصفوفة حولها. وكان يشير إليها وهو يقول: ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾ (الاسراء، الآية 81). وبعد أن ظهرت الكعبة من الأصنام أمر النبي عليه الصلاة والسلام بلالاً أن يؤذن فوقها.

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟" قالوا: "خيراً. أخٌ كريمٌ وابن أخٍ كريم". فقال عليه الصلاة والسلام: "أذهبوا فأنتم الطلقاء".

فما أجمل العفو عند المقدرة، وما أحلى التسامح والبعد عن الانتقام. ولننظر ما فعل الغالبون بالمغلوبين في الحريين العالميتين في قرننا هذا، قرن الحضارة كما يقولون، لنعلم الفرق ما بين الإسلام والكفر.

وهكذا ارتفعت راية الإسلام في مكة وما حولها، وراح الناس ينعمون بتوحيد الله.

معارك إسلامية

ازداد عدد المسلمون بعد معركة فتح مكة وتوسع الاسلام وجيش المسلمين من مكة الى القدس ثم سوريا وايران والعراق ومصر في اقل من عقد من الزمن استمر زحف جيوش الاسلام بعدها الى اوروبا لم يكن ليحصل تطور الاسلام ووصوله الى وضعه الحالي كأكبر دين وقوة سياسيه بالعالم بدون توفيق الله عزوجل وفتح الرسول عليه الصلاه والسلام للمدينه لن انسى بالطبع معركه بدر واحد وقد مهدت الطريق ل فتح مكة الذي جعل الاسلام ينتشر بكافه أرجاء الأرض.

وهذا يجعلها من أهم المعارك التي أثرت بالعالم ويرأيي هي أهم معركة لانها اساس كل شئ فالرسول قضى فيها على كل معالم الوثنيه والجهل والفساد ونشر فيها اخر دين على وجهه الأرض الاسلام.

هزوة حنين / شوال 8هـ

كان لفتح مكة في رمضان سنة 8هـ وبهذه الصورة القوية والمباغته أثر بالغ في تحريك ضغائن القبائل العربية المنافسة لمضر عمومًا وقريش خصوصًا، وكانت بطون قيس عيلان بالأخص في حالة عداء تقليدية وقديمة مع بطون مضر، لذلك لما فتح المسلمون مكة، اجتمعت قبائل هوازن وثقيف وبني هلال، وقررت محاربة المسلمين مدفوعة بعداوة الإسلام وعداوة القبلية والعصبية.

قرر القائد العام لتحالف مشركي هوازن وثقيف مالك بن عوف أن يسوق مع الجيش الأموال والعيال والنساء ليزيد ذلك من حماس المشركين في القتال ويجعلهم يقاتلون حتى الموت، إن لم يكن للنصر فللدفاع عن الحرمات، وسار جيش التحالف الشرقي حتى وصل إلى وادي أوطاس وهو على مسيرة يوم من مكة تقريبًا، ولم يعجب هذا الرأي أحد قادة الجيش المجريين نوي الخبرة وهو دريد بن الصمة ولكن مالك بن عوف أصر عليه، وهدد بالانتحار إذا لم يطيعوه، فأطاعوه على سفاهة رأيه، ولُقب من بعدها بالأحمق المطاع.

وصلت أخبار هذا الجيش للرسول صلى الله عليه وسلم، فاستعد بجيش كبير يضم كثيرًا من مسلمة الفتح الذين لم يدخل الإسلام في قلوبهم بصورة كاملة، وكان الجيش كبيرًا بصورة أعجبت كثيرًا من المسلمين، وداخلهم الثقة الكاملة لحد الفرور من النصر الكاسح على المشركين، وانزعج الرسول صلى الله عليه وسلم من مقولة بعضهم: "لن نغلب اليوم من قلة".

قام مالك بن عوف بوضع جيشه على شكل كمائن في مداخل ومضايق وشعب وادي حنين وقد سبق المسلمين لهذا الوادي، ووضع خطته على مفاجأة المسلمين بالسهم القاتلة، وفي يوم 10 شوال سنة 8هـ وعند السحر دخل المسلمون وادي حنين وهم لا يدرون بوجود كمناء العدو، وفجأة انهالت السهام عليهم من كل مكان والعدو يهجم عليهم هجمة رجل واحد، فأصيب المسلمون بالدهشة

المريكة وتراجعوا بدون نظام، فركبوا بعضهم بعضاً من شدة الصدمة، وصاح بعض حديثي العهد بالإسلام مثل أبي سفيان بن حرب وكلدة بن الجنيّد بما في صدورهم وعندها قام الرسول بعمل جريء، إذ عرض نفسه لمخاطرة كبيرة، إذ انحاز إلى جهة اليمين ثم نادى على المسلمين، وخصص النداء بالمهاجرين والأنصار وأهل بيعة الرضوان، حتى اجتمع عنده مائة من خاصة أصحابه، فقال النبي: "الآن حمي الوطيس" ثم أخذ قبضة من تراب الأرض ورمى بها في وجوه القوم وقال: "شاهت الوجوه" ولم تمر سوى ساعات قلائل حتى انهزم العدو هزيمة منكرة، وفروا إلى عدة أماكن مختلفة، فطائفة إلى أوطاس وأخرى إلى "نخلة" ومعظم الفارين إلى حصون الطائف، فأرسل الرسول صلى الله عليه وسلم عدة فرق لمطاردة الفارين، وذلك من أجل منعهم من التجمع ومعاودة الهجوم على المسلمين.

استطاعت فرق المطاردة القضاء على الفارين، وبعدها اتجه الرسول والمسلمون مباشرة إلى الطائف حيث منازل وحصون ثقيف، وقد لجأ إليها مالك ابن عوف ومعظم الفارين، وضربوا على الطائف حصاراً شديداً، وقع خلاله مناوشات حامية بين المدافعين عن الحصن والمسلمين، حدثت خلالها إصابات كثيرة للمسلمين جعلتهم يغيرون مكان معسكرهم. حاول الرسول الضغط على المحاصرين بقطع حدائق أعنابهم، فسألوه أن يدعها لله والرحم، فتركها لله والرحم، ثم أعلن أن من خرج من عبيد ثقيف للمسلمين فهو حر، فخرج إليهم ثلاثة وعشرون رجلاً، ثم حاول الهجوم بشدة ولكن أهل الحصن قد أعدوا فيه ما يكفيهم لحصار سنة، وبعد المشاورة قرر الرسول الرجوع ورفع الحصار عن الطائف.

معركة إلامية

ولما عاد رسول الله بعد رفع الحصار عن الطائف، مكث بالجعرانة، وهو المكان الذي تم تجميع فيه غنائم حنين، وكانت كبيرة وضخمة بالمقارنة بغنائم المعارك السابقة، فقام الرسول بتوزيعها على رؤساء القبائل وأشرف مكة والمؤلفة قلوبهم، وأفاض في العطاء، حتى ازدحم عليه الأعراب والناس طمعاً في المال، ولم يعط النبي للأنصار من هذه الغنيمة الضخمة شيئاً، فوجد الأنصار في أنفسهم من هذا الأمر وتكلموا فيه حتى كثرت فيهم القالة، فجمعهم النبي ووعظهم موعظة بليغة مؤثرة أزالَت من نفوسهم أي أثر للحزن ووجد النفوس.

وانزل الله عز وجل في أحداث غزوة حنين وما جرى فيها للمسلمين من إعجاب بالنفس آيات من الذكر الحكيم في سورة التوبة، ليتأسى المسلمون بهذه الحادثة العظيمة وما فيها من دروس وعبر.

معركة اليمامة

لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب عدا أهل المسجدين مكة والمدينة، وانحاز إلى مسيلمة الكذاب بنو حنيفة وخلق كثير باليمامة حتى بلغوا نحواً من أربعين ألفاً، فبعث أبو بكر رضي الله عنه خالد بن الوليد إلى قتالهم وحشد معه المسلمين، فسار لا يمر بأحد من المرتدين إلا نكل بهم، وأردف الصديق خالداً بسرية لتكون ردة له من وراءه .

فلما سمع مسيلمة بقدم خالد عسكر بمكان يقال له عقرياء في طرف اليمامة، والريف وراء ظهورهم، وندب الناس وحثهم، فحشد له أهل اليمامة، وجعل على مجنبتى جيشه المحكم بن الطفيل ونهار الرجال بن عنفوة، وكان الرجال صديقه الذي شهد له كذباً أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إنه أشرك معه مسيلمة في الأمر، وقرب خالد وقد جعل على المقدمة شرحبيل بن حسنة وعلى المجنبتين زيد بن الخطاب وأبا حذيفة، وقد مرت المقدمة بالليل بنحو من أربعين وقيل ستين فارساً عليهم مجاعة بن مرارة، وكان قد ذهب لأخذ ثأر له من بني تميم وبني عامر وهو راجع إلى قومه فأخذوهم، فلما جيء بهم إلى خالد قال لهم: "ماذا تقولون يا بني حنيفة؟"، قالوا: "نقول منا نبي ومنكم نبي"، فقتلهم إلا واحداً اسمه سارية بن عامر، فقال له: "أيها الرجل إن كنت تريد بهذه القرية غداً خيراً، أو شراً فاستبق هذا الرجل - يعني مجاعة بن مرارة -"، فاستبقاه خالد مقيداً وجعله في الخيمة مع امرأته، وقال: "استوصي به خيراً".

وتقدم المسلمون حتى نزل بهم خالد على كثيب يشرف على اليمامة، وكانت راية المهاجرين مع سالم مولى أبي حذيفة، وراية الأنصار مع ثابت بن قيس بن شماس، والعرب على راياتها، فاصطدم المسلمون والكفار فكانت جولة، وانهزمت الأعراب حتى دخلت بنو حنيفة خيمة خالد بن الوليد وقتل زيد بن الخطاب الرجال بن عنفوة لعنه الله، ثم تذامر الصحابة بينهم، وقال ثابت بن قيس: "بئس ما عودتم أقرانكم"، فنادوا من كل جانب، فخلصت إليهم ثلة من المهاجرين والأنصار، وقاتلت بنو حنيفة قتالاً لم يعهد مثله، وجعل الصحابة يتواصون بينهم ويقولون: "يا أصحاب سورة البقرة بطل السحر اليوم"، وحضر ثابت

سماك بن خرشة فضريه بالسيف فسقط، فكان جملة من قتلوا في الحديقة وفي المعركة قريباً من عشرة آلاف مقاتل-وقيل أحد وعشرون ألفاً- وقتل من المسلمين ستمائة، وفيهم من سادات الصحابة وأعيان الناس .

وخرج خالد وتبعه مجاعة بن مرارة يرسف في قيوده، فجعل يريه القتلى ليعرف مسيلمة، فمروا بالرجال بن عنفوة، فقال له خالد: "أهذا هو؟ قال: لا والله، هذا خير منه، هذا الرجال بن عنفوة"، ثم مروا برجل أفضس الأنف أصفر فقال: "هذا صاحبكم؟ قال: نعم، قال خالد: قبحكم الله على اتباعكم هذا". ثم بعث خالد الخيول حول اليمامة يلتقطون ما حول حصونها من مال وسبي، ثم عزم خالد على غزو الحصون، ولم يكن بقي فيها إلا النساء والصبيان والشيخوخ الكبار، فخدعه مجاعة بن مرارة فقال إنها ملأى رجالاً ومقاتلة فهلم فصالحني عنها، فصالحه خالد لما رأى بالمسلمين من الجهد، وقد كلوا من كثرة الحروب والقتال، فصالحه خالد على الذهب والفضة والسلاح وربع السبي، فلما فرغا فتحت الحصون فإذا ليس فيها إلا النساء والصبيان، فقال خالد لمجاعة: "ويحك خدعتني"، قال: "قومي ولم أستطع إلا ما صنعت"، ودعاهم خالد إلى الإسلام، فأسلموا عن آخرهم، ورجعوا إلى الحق، ورد عليهم خالد بعض ما كان أخذ من السبي، وساق الباقي إلى الصديق، وقد تسرى علي بن أبي طالب رضي الله عنه بجارية منهم، وهي أم ابنه محمد الذي يقال له محمد بن الحنفية -رحمه الله- وكانت هذه الواقعة في آخر السنة الحادية عشر من الهجرة وأول السنة الثانية عشر من الهجرة النبوية الشريفة.

معركة الولجة

معركة الولجة التي وقعت في بلاد الرافدين في مايو 633 بين جيش الخلفاء الراشدون بقيادة خالد بن الوليد والامبراطورية الفارسية وحلفاءها من العرب المسيحيين. في هذه المعركة كانت قوات الفرس ضعف قوات المسلمين. هزم خالد بن الوليد القوات الفارسية رغم تفوقها العددي بنسخة مطورة عن حركة الكماشة التي استخدمها حنبعل ضد الرومان في معركة كاناي.

خلفية المعركة:

بعد وفاة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، خلفه أبو بكر الصديق. في خلال 27 شهرا، سحق تمرد القبائل العربية في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية أثناء حروب الردة واستعاد سلطة المدينة في الجزيرة العربية. بمجرد أن أخمدت نار الردة، بدأ أبو بكر الفتوحات الإسلامية وهي حملات ضد الامبراطورية الفارسية و الإمبراطورية الرومانية الشرقية -الإمبراطورية البيزنطية، وبعد بضعة عقود ستؤدي تلك الحملات إلى قيام واحدة من أكبر الامبراطوريات في التاريخ. بعد حروب الردة قام رئيس قبيلة بمهاجمة المدن الفارسية في العراق بنجاح، فقرر أبو بكر الصديق رضي الله عنه توسيع حدود الدولة الإسلامية. بدأ مع العراق، إحدى أغنى الولايات الفارسية. تكون الجيش الذي فتح بلاد فارس أساسا من المتطوعين للجهاد، تحت إمرة أحسن قائد عسكري انداك خالد بن الوليد.

بدأت حرب المسلمين ضد الإمبراطورية الفارسية في نيسان/ابريل 633 م وهزم الجيش المسلم في معركتين متتاليتين: معركة ذات السلاسل ومعركة نهر الدم. كان هدف المسلمين الاستيلاء على مدينة الحيرة. بعد معركة نهر، عاد جيش الخلفاء الراشدون تحت قيادة خالد بن الوليد مرة أخرى لحيرة؛ في الوقت نفسه وصلت انباء الهزيمة في معركة نهر إلى قطيسيفون. كان قادة الجيوش

معارك إسلامية

الفارسية المهزومة في بلاد الرافدين ليسوا فقط الأكثر خبرة لكنهم انهم كانوا أيضا الأقرب إلى الملوك الفارسيين، ولذلك قرر اردشير الثالث عدم اتخاذ أي فرص.

الجيش الفارسي:

أمر الامبراطور الساساني، اردشير الثالث بتركيز جيشين آخرين في نفس يوم معركة نهر الدم.

بعد أوامر اردشير الثالث، بدأت القوات الفارسية بالتجمع في العاصمة الامبراطورية. جاءوا من كل المدن والهاميات باستثناء من يحرسون الحدود الغربية مع الامبراطورية الرومانية الشرقية. في أيام قليلة كان الجيش الأول مستعدا توقع مستشارو الامبراطورية الفارسية العسكريون ان المسلمين سيسيروا مع الفرات إلى الشمال الغربي في العراق، لأنهم يعرفون أن القوات العربية عبر التاريخ لا تتحرك بعيدا عن الصحراء، والتي تستخدمها للتراجع في حالة الهزيمة. بعد توقع تحرك جيش المسلمين صوب الغرب، اختار اردشير الثالث الولجة كالمكان الذي سيوقف فيه خالد بن الوليد و يدمر جيشه. أول جيوش الامبراطورية الفارسية وصلت إلى قطسيفون ووضع تحت قيادة اندرزغار حاكم خراسان. اندرزغار أمر جيشه بالتقدم للولجة، حيث سيلتحق به الجيش الثاني قريبا. انطلق الجيش الأول من قطسيفون، وانتقل على طول الضفة الشرقية من دجلة، عبر دجلة في كاسكار، وانتقل إلى الجنوب الغربي إلى الفرات، بالقرب من الولجة، عبر الفرات وأنشئ معسكره في الولجة.

جيش المسلمين:

كانت معركة نهر الدم نصرا هاما للمسلمين. فمع انخفاض خسائرهم، هزم المسلمون جيشا فارسيا كبيرا و حصلوا على كمية هائلة من الغنائم. آنذاك بدأ المسلمون يدركون ضخامة موارد الامبراطورية الفارسية؛ لكنهم لم يخوضوا سوى معركتين منفصلتين مع جيشين منفصلين و المسلمون هم الذين اختاروا أرض المعركة ولا يزالون سوى على هوامش الإمبراطورية. وندكر ان الفرس يمكنهم صف عدة جيوش ميدانية في ان واحد كمثل تلك التي خاضت في معركة كازيما ومعركة نهر الدم. نظم خالد شبكة عملاء فعالة تعلمه بمواقع الفرس. العملاء هم من العرب المحليين الذين كانوا معادين للفرس. أبلغ العملاء خالد عن تركيز الجيوش الفارسية الجديد في الولجة، وعن أعدادهم الكبيرة.

كان خالد مصمما على الحصول على الحيرة، والولجة كانت في طريقه اليها مع جيش من حوالي 15,000 رجل، انطلق خالد في اتجاه مدينة الحيرة، وتحرك على نحو سريع على طول الحافة الجنوبية من المستنقعات. قبل أيام قليلة من توقع باهمان، بدأ الجيش المسلم في الظهور في الأفق الشرقي، أقام مخيمه على مسافة قريبة من الولجة.

مناورة خالد:

أعداد كبيرة من الفرس الساسانيين كانوا قد فروا من المعارك السابقة عادوا إلى حمل السلاح مرة أخرى. الناجون من معركة ذات السلاسل انضموا إلى قارين وقاتلوا في معركة نهر الدم. الناجون من معركة نهر الدم انضموا إلى اندرزاغار والآن اتجهوا نحو الولجة. واجه المسلمون هاجسان، واستراتيجية واحدة و تكتيك واحد:

- الاستراتيجية: كان جيشان من الفرس على وشك أن يجمعا للاعتراض للمسلمين. لحل هذه المشكلة، القائد الأعلى للقوات المسلمة خالد بن الوليد عزم على الهجوم بسرعة، والمحاربة، والقضاء على الجيش الأول: جيش اندرزاغار، ثم الجيش الثاني: جيش باهمان، قبل وصوله إلى مكان المعركة.
- التكتيك: منع مقاتلي العدو من الهرب من خضم معركة وإعادة تنظيم صفوفهم والعودة لمواصلة القتال. لذلك، قرر خالد احاطة الجيش الفارسي، والانقضاض عليه من الخلف، وتدمير جيشهم في هذا الوقت. استراتيجية خالد كانت نوعا من حركة الكماشة.

اعطى خالد توجيهاته إلى سويد بن مقارن لرؤية الادارة للمناطق التي غزاها مع فريق من المسؤولين، ونشرت مفازر لحراسة دجلة من احتمال عبور العدو وهجومه من الشمال والشرق، وإعطاء أي تحذير عن قوات جديدة للعدو في تلك الاتجاهات.

موقع المعركة:

أرض المعركة تكونت من سهل شاسع ممتد بين مرتفعين يمتدان إلى حوالي ميلين وبارتفاع 30 قدما. الشمال الشرقي من السهل يتداخل مع صحراء قاحلة. على مقربة من الشمال الشرقي يظهر لنا فرع من الفرات يسمى بنهر خاسف.

كان اندرزاغار واثق من النصر، حتى إنه لم يزعج نفسه بالانسحاب إلى الضفة النهر، على بعد ميل واحد، ليتمكن من استخدام النهر لحماية عمق الجيش. في ايار/مايو 633، تم نشر الجيشين لخوض المعركة، ولكل منهما مركز وأجنحة. أجنحة المسلمين كانت بقيادة عاصم بن عمرو وعاصي بن حاتم. انتشر الجيش الفارسي في وسط السهل، وكان مواجهًا للشرق وللجنوب الشرقي، وفي الجنوب الغربي كانت وراءه التلال. شكل خالد جيشه أمام تلال الشمال الشرقي، في مقابل الجيش الفارسي. وسط ساحة المعركة، أي نقطة الوسط بين الجيشين، كانت تبعد حوالي ميلين إلى الجنوب الشرقي من عين الموهاري، وعلى بعد 35 ميلاً إلى الجنوب الشرقي تقع النجف و 6 أميال إلى الجنوب الشرقي تقع خش الصنافية. معظم قوات المسلمين تالفت من المشاة، مع عدد قليل من الفرسان. توقع الفرسان أن يكون جيش خالد أكبر بكثير. في الليلة التي سبقت معركة الولجة أرسل خالد اثنين من ضباطه بشرين أبي رحم وسعيد بن مارا وجعل كل منهما قائداً على قوة متحركة تتكون من نحو 2,000 فارس وأمرهم على النحو التالي:

- سوف يأخذ كل منهما فرسانه خلال الليل و يتحرك بسرعة في الجنوب من مخيم الفرسان.
- عند الوصول إلى الجانب الآخر من سلسلة التلال التي تمتد وراء مخيم الفرسان، سيخفيان الرجال ولكن يحتفظان بهم على أهبة الاستعداد للتحرك خلال فترة قصيرة.
- عند الصباح ستبدأ المعركة، وسيبقون رجالهم وراء التلال، وسيضعون عدداً من المراقبين لانتظار إشارة خالد.
- عندما يعطي خالد إشارته، سيهاجمان القوات الفارسية من المؤخرة، وكل مجموعة ستهاجم جناحاً.

خطة الكماشة التي طبقها خالد بن الوليد في معركة الولجة. احاط المسلمون بالفرس ودمروا جيشهم جيش الخلفاء الراشدون جيش الفرس.

صدرت الأوامر اللازمة من خالد لمن كان يجب ان يعرف هذه الخطة، حتى يتسنى تنظيم وتحضير قوات الضربة دون حدوث أي توقف وبسريرة تامة، لذا لم يتم اعلام المقاتلين المسلمين العاديين شيئاً من مناورة حركة الكماشة. شكل خالد جيشه بالـ 10.000، المتبقية قبالة الجيش الفارسي الساساني. استراتيجية القائد الأعلى للقوات الفارسية، اندرزغار، كان تعتمد على الدفاع وترك المسلمين يهاجمون أولاً. اعتزم وقف هجماتهم حتى تصبح دون فائدة، وبعد ذلك الشروع في هجوم مضاد لهزيمة جيش المسلمين. المرحلة الأولى من المعركة كانت وفق خطة اندرزغار. خالد أمر الجيش بشن هجوم عام. كان للجيش الفارسي احتياطات ستحل محل الرجال في خط المواجهة، الأمر الذي يتيح لهم التحكم في جيش المسلمين ومساعدتهم على تنفيذ مخططهم لاستهلاك جيش خالد. خلال هذا الوقت، بارز خالد بن الوليد يقال مع بطل الفرس العملاق الذي يطلق عليه "هزار مارد" وقتله، فكان هذا نصراً نفسياً للمسلمين.

كانت المرحلة الأولى قد انتهت. المرحلة الثانية من المعركة بدأت مع هجوم مضاد لجيش الفرس. وربما شاهد اندرزغار علامات التعب على الجنود المسلمين، لذا احتكم على أن هذه هي اللحظة المناسبة للهجوم المضاد. للجيش الفارسي فرع من سلاح الفرسان الثقيل قفز إلى الأمام وضرب المسلمين.

تمكن المسلمون من احتجازهم لبعض الوقت، لكن الفرس زادوا الضغط. كان هناك تراجع مبهم للجيش الإسلامي ووقف للهجوم حتى اصدار تعليمات أخرى من خالد بن الوليد. اعطى خالد في النهاية الإشارة على المضي قدماً. اللحظة القادمة، من خلال افق التلال التي تمتد وراء ظهر الجيش الفارسي ظهرت فرقتان من المحاربين واحدة من وراء الجناح الفارسي الايمن، وأخرى من وراء الجناح الفارسي الايسر. سلاح الفرسان المسلمين الخفيف، المعروف بسرعته

معارك إسلامية

التي لا تصدق، وامكانيته على تنفيذ المناورات والتراجع والهجوم مرة أخرى، لم يكن سلاح الفرسان الفارسي الثقيل ندا له. مع هزيمة الفرسان الفارسيين، تصاعدت الهجمات التي بدأت تحاصر الفرس. استأنف القسم الرئيسي من الجيش المسلم تحت قيادة خالد بن الوليد الهجوم على الجبهة الفارسية، وفي الوقت نفسه مد مجموعتي الفرسان لأحاطة الفرس تماما. جيش اندرزاغار كان واقعا في شرك، لا يمكن له الفرار منه.

مع ارتدادات الهجمات التي تأتي من كل الاتجاهات، الجيش الفارسي اجتمع في كتلة مترهلة، عاجزة عن استخدام السلاح بحرية أو تجنب ضربات المهاجمين. وسط الزخم الذين كانوا يريدون القتال لم يعرفوا من يقاتلون. الذين كانوا يريدون الفرار من لم يعرفوا إلى أين يذهبون. انتهت المعركة، والحقت خسائر فادحة إلى الجيش الفارسي. فقط بضعة آلاف من المحاربين الامبراطوريين تمكنوا من الفرار. اندرزاغار نفسه تمكن من الهرب، لكنه فر في اتجاه الصحراء العربية بدلا من الفرات وتوفي في تلك المنطقة من العطش.

ما بعد المعركة:

بعد المعركة جمع خالد رجاله المستنفدين معا. وادرك ان المعركة فرضت ضغطا رهيبا على قواته، على الرغم من انتصارهم الساحق على الفرس. كانت معركة الولجة أطول وأشرس المعارك التي خاضها المسلمون حتى الآن في العراق، ولذلك سعى خالد بن الوليد إلى ضمان أن تبقى معنويات المسلمين مرتفعة.

يقال ان خالد بعد المعركة بدأ بالثناء الله والدعاء بالبركة لمحمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

بعد القضاء على جيش فارسي آخر وحلفاءه العربي المسيحيين في معركة اليمس، ومعركة الحيرة، عاصمة بلاد الرافدين في أواخر أيار/مايو 633 م وتلا ذلك معركة الأنبار والنجاح في حصار عين التمر. مع سقوط المدن الرئيسية كلها في جنوب ووسط العراق، باستثناء قطيسفون، أصبح العراق تحت سيطرة المسلمين. في 634 م أمر أبو بكر خالد بن الوليد للشرع في الهجوم على سوريا مع نصف جيشه لقيادة الفتح الإسلامي لسوريا. كما ترك سينا بن حاريس خليفة لخالد. الفرس، في ظل الامبراطور الجديد يزدجرد الثالث، شكلوا جيشا جديدا وهزموا المسلمين في معركة الجسر، وإعادة ضم العراق. كان الفتح الإسلامي الثاني للعراق تحت قيادة سعد بن أبي وقاص الذي، بعد هزيمة الجيش الفارسي في معركة القادسية في 636 ميلادية، وفتح قطيسفون. وتبع ذلك كله فتح المدائن.

معركة مرج الصفر

معركة مرج الصفر بتاريخ 18-8-634 م؛

وهي من المعارك الأوائل في صدر الإسلام وفيها احتك المسلمون وللمرة الثالثة مع أقوى إمبراطورية في العالم وهي دولة الروم حيث كانت تسيطر على بلاد الشام وسعى خليفة الحبيب أبو بكر الصديق جزاه الله عنا وعن الإسلام خيرا بتاريخ 16 جمادى الآخرة من عام 13 هـ إلى تحرير هذه البقعة المباركة من براثن الروم، فأرسل الصحابي الجليل خالد بن سعيد بن العاص إلى مشارف الشام. ومن خبرة الصديق العسكرية أمره أن يبقى في أطراف الشام وأن لا يقاتل إلا من قاتله ولكن للعملاء دور اسود منذ ذلك التاريخ فوصل الخبر إلى هرقل ملك الروم، فجهز جيشا من العرب المواليين له - وما أشبه اليوم بالبارحة - وقد جمع قبائل من بهراء وسليح وكلب ولخم وجذام غسان وذلك لكي يقاتل بهم العرب المسلمين، ولكن ولشجاعة الصحابي الجليل خالد سار إليهم بجيشه إلى مكان تجمعهم فهو لا ينتظر العدو أبدا ففرقهم وأرسل إلى خليفة رسول الله بالخبر وهو الخبير بأمور العرب وأنسابهم ونقاط ضعفهم فأمره بأن يستمر بالهجوم حتى لا ينضموا صفوفهم ولكنه نصحه نصيحة العسكري المحنك "أقدم ولا تحجم واستنصر الله" فيا لها من رسالة قصيرة ذات معان جلية فهذا الصديق يأمر قائد الجيش أن يهيئ خط الانسحاب وأن لا يتوغل كثيرا في بلاد العدو. وفعلًا قام الجندي المطيع خالد بما أمر به فتقد على القسطل قرب البحر الميت فسحق فلول الروم وتابع مسيرته، ولكن هاج الروم وجيشوا جيوشهم وبعد استطلاع خالد لجيش العدو أرسل خطابا سريعا لطلب المدد فالتوكل على الله لا ينال هذا الطلب فأرسل الصديق أبو الصديقة بمددي عكرمة بن أبي جهل والوليد بن عقبة فكانت موقعة مرج الصفر حيث التقى الجيشان قرب بحيرة طبرية، فقدر الله تعالى أن يبتلى المسلمين بهذه المعركة فالتف الروم حولهم والتقى أمير جيش الروم باهان بابن قائد جيش المسلمين سعيد بن خالد بن سعيد فاستشهد سعيدا.

وتأتي الحنكة العسكرية للصحابي الجليل خالد فينسحب كما أمره الصديق رضي الله عنه عندما أحيط بهم فقد نصب المسلمون الكمائن في طريق الرجعة وعند انسحابهم على ظهور الخيل قام العسكري المحنك عكرمة بتنفيذ هذه الكمائن ريثما استكمل الجيش الإسلامي انسحابه من حدود الشام.

ولكن هل انتهت المعركة؟ لا.. لقد كان للروم وأتباعهم من العرب يوما اسودا مع أربعة جيوش حشدها صديق الأمة لتكسر شوكتهم في معركة اليرموك واجنادين.

من هذه المعركة تلخص الدروس التالية:

- طاعة الأمير والالتزام بأوامره لان فيها نجاة بعد التوكل على الله.
- الانسحاب في المعارك والكر والفر هو أسلوب لا يخل بمبدأ التوكل على الله أو شجاعة المسلمين.
- تأمين طرق الانسحاب والكمائن للعدو هو جزء من التوكل على الله تعالى.
- الحذر من وصول المعلومات إلى العدو وفي الوقت ذاته تتبع أخبار العدو لكي لا يفاجئ الجيش الإسلامي بعدده وعدته.
- مخاطبة الأمير في كل صغيرة وكبيرة وطلب المدد لا يخل بمبدأ التوكل.
- المبدأ العسكري للصديق أقدم ولا تحجم واستنصر الله.
- الدور الفعال لمباغطة العدو قبل تنظيم صفوفه.
- دور عملاء الروم العرب في قبائل الشام وكان الروم يستخدمونه كالعبيد وما أشبه اليوم بالبارحة.

نسأله تعالى أن يفتح على المسلمين وان يرزقهم أميرا كامير معركة مرج الصفر وجيشا كذلك الجيش وان يرزقنا إتياع خطوات أولئك السلف انه سميع مجيب.

معركة القادسية

(معركة فورت مجرى التاريخ)

معركة القادسية هي معركة وقعت في 13 شعبان 15هـ / 635م، وقيل في 16هـ / 636م، بين المسلمين بقيادة سعد بن أبي وقاص والفرس بقيادة رستم فرخزاد في القادسية انتهت بانتصار المسلمين ومقتل رستم.

أسباب المعركة:

في عام 14 هـ جمع يزيد جرد طاقاته ضد المسلمين، فبلغ ذلك المثنى بن حارثة الشيباني فكتب إلى عمر بن الخطاب فأعلن النفير العام للمسلمين أن يدركوا المسلمين في العراق واجتمع الناس بالمدينة المنورة فخرج عمر معهم إلى مكان يبعد عن المدينة ثلاثة أميال على طريق العراق والناس لا يدرون ما يريد أن يصنع عمر، واستشار عمر الصحابة في قيادته للجيش بنفسه فقرروا أن يبعث على رأس الجيش رجلاً من أصحاب الرسول ويقيم هو ولا يخرج واستشارهم في من يقود الجيش فأشير إليه بسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه

المسير إلى القادسية:

استدعى عمر بن الخطاب سعد بن أبي وقاص وكان على صدقات هوازن فولاه الجيش وأمره بالسير ومعه أربعة آلاف ثم أمدّه بألفي يمني وألفي نجديّ وكان مع المثنى ثمانية آلاف ومات المثنى قبل وصول سعد وتتابعت الإمدادات حتى صار مع سعد ستة وثلاثون ألفاً. كان منهم تسعة وتسعون بدريةً وثلاثمائة وبضعة عشر ممن كان له صحبة فيما بين بيعة الرضوان إلى ما فوق ذلك وثلاثمائة ممن شهد الفتح وسبعمائة من أبناء الصحابة فنظم الجيش وجعل على الميمنة عبد الله بن المعتم وعلى الميسرة شرحبيل بن السمط الكندي وجعل خليفته إذا استشهد خالد بن عرفة وجعل عاصم بن عمرو التميمي وسواد بن مالك على الطلائع وسلمان بن ربيعة الباهلي على المجردة وعلى الرجالة حمال بن

معارك إسلامية

مالك الأسدي وعلى الركبان عبد الله بن ذي السهمي وجعل داعيتهم سلمان الفارسي والكاتب زياد بن أبيه وعلى القضاء بينهم عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي.

أما الفرس فقد أجبر يزدجرد رستم على قيادة الجيش الفارسي بنفسه وأرسل سعد وفداً إلى رستم فيهم: النعمان بن مقرن المزني وبسر بن أبي رهم والمغيرة بن شعبة والمغيرة بن زرارة.

وسار رستم وفي مقدمته الجالينوس وجعل في ميمنته الهرمزان وعلى الميسرة مهران بن بهرام ثم سار رستم حتى وصل الحيرة ثم النجف حتى وصل القادسية ومعه سبعون فيلاً.

القتال:

وعبر الفرس النهر في الصباح ونظموا جيشهم، ونظم سعد جيشه وحثهم على السمع والطاعة لنائبه خالد بن عرفة لأن سعداً أصابته دمامل في فخذه واليتيه فكان ينام على وجهه وفي صدره وسادة، ويقود المعركة من فوق قصره، وصلى المسلمون الظهر وكبر سعد التكبيرة الأولى فاستعدوا، وكبر الثانية فلبسوا عدتهم، وكبر الثالثة فنشط الفرسان، وكبر الرابعة فزحف الجميع، وبدأ القتال والتلاحم.

ولما رأت خيل المسلمين الفيلة نفرت وركز الفرس ب (17) فيلاً على قبيلة بجيلة فكادت تهلك، فأرسل سعد إلى بني أسد أن دافعوا عن بجيلة فأبلوا ببلاء حسناً وردوا عنهم هجمة الفيلة، ولكن الفيلة عادت للفتك بقبيلة أسد، فنادى سعد عاصم بن عمرو التميمي ليصنع شيئاً بالفيلة، فأخذ رجالاً من قومه فقطعوا حبال التوابيت التي توضع على الفيلة فارتفع عواؤها فما بقي لهم فيل إلا أعري وقتل أصحابه ونفس عن قبيلة أسد، واقتتل الفريقان حتى الغروب وأصيب من أسد تلك العشية خمسمائة كانوا رءء للناس وهذا هو اليوم الأول من المعركة ويسمى أرماث وهو الرابع عشر من المحرم.

معارك إسلامية

وفي اليوم الثاني أصبح القوم فوكل سعد بالقتلى والجرحى من ينقلهم وسلم الجرحى إلى النساء ليقيم عليهم، وفي أثناء ذلك طلعت نواصي الخيل قادمة من الشام وكان في مقدمتها هاشم بن عتبة بن أبي وقاص والقعقاع بن عمرو التميمي، وقسم القعقاع جيشه إلى أعشار وهم ألف فارس وانطلق أول عشرة ومعهم القعقاع فلما وصلوا تبعته العشرة الثانية وهكذا حتى تكامل وصولهم في المساء، فألقى بهذا الرعب في قلوب الفرس فقد ظنوا أن مائة ألف قد وصلوا من الشام فهبطت همهم ونازل القعقاع بهمن جاذويه أول وصوله فقتله ولم يراهم فارس في هذا اليوم شيئاً يعجبهم فقد أكثر المسلمون فيهم القتل ولم يقاتل الفرس بالفيلة في هذا اليوم لأن توابعها قد تكسرت بالأمس فاشتغلوا هذا اليوم بإصلاحها والبس بعض المسلمين إبلهم فهي مجللة مبرقة وأمرهم القعقاع أن يحملوا على خيل الفرس يتشبهون بها بالفيلة ففعلوا بهم هذا اليوم وهو يوم أغواث كما فعلت فارس يوم أرمات فجعلت خيل الفرس تضر منها وقاتلت الفرس حتى انتصف النهار فلما اعتدل النهار تزاحفوا من جديد حتى انتصف الليل فكانت ليلة أرمات تدعى الهدأة وليلة أغواث تدعى السواد.

أصبح القوم لليوم الثالث وبين الصفين من قتلى المسلمين ألفان ومن جريح وميت من الفرس عشرة آلاف، فنقل المسلمون قتلاهم إلى المقابر والجرحى إلى النساء، وأما قتلى الفرس فبين الصفين لم ينقلوا.

وبات القعقاع لا ينام فجعل يسرب أصحابه إلى المكان الذي فارقهم فيه بالأمس وقال: إذا طلعت الشمس فأقبلوا مائة مائة، ففعلوا ذلك في الصباح فزاد ذلك في هبوط معنويات الفرس.

وابتدا القتال في الصباح في هذا اليوم الثالث وسمي يوم عمواس، والفرس قد أصلحوا التوابيت فأقبلت الفيلة يحميها الرجال فنفرت الخيل، ورأى سعد الفيلة عادت لفعلها يوم أرمات فقال لعاصم بن عمرو والقعقاع: اكفياني الفيل الأبيض وقال لحمال والربيل: اكفياني الفيل الأجرب، فأخذ الأولان رمحين

وتقدما نحو الفيل الأبيض فوضعا رمحيهما في عينيه فنفض رأسه وطرح ساسته ودلى مشفره فضربه القعقاع فوقع لجنبه، وحمل الأخران على الفيل الأجرب فطعنه حمال في عينه فجلس ثم استوى وضربه الربييل فأبان مشفره فأفلت الأجرب جريحاً وولى وألقى نفسه في النهر واتبعته الفيلة وعدت حتى وصلت المدائن، ثم تزاحف الجيشان فاجتلدوا وسميت هذه الليلة ليلة الهرير، وفي هذه الليلة حمل القعقاع وأخوه عاصم والجيش على الفرس بعد صلاة العشاء فكان القتال حتى الصباح، وانقطعت الأخبار عن سعد ورستم فلم ينم الناس تلحك الليلة وكان القعقاع محور المعركة.

فلما جاءت الظهيرة كان أول من زال عن مكانه الضيرزان والهرمزان فانضج القلب وأرسل الله ريحاً هوت بسرير رستم وعلاه الغبار ووصل القعقاع إلى السرير فلم يجد رستم الذي هرب واستظل تحت بغل فوقه حمله فضرب هلال بن علفة الحمل الذي تحته رستم وهو لا يعرف بوجوده فهرب رستم إلى النهر فرمى نفسه ورآه هلال فتبعه وارتمى عليه فأخرجه من النهر ثم قتله ثم صعد طرف السرير وقال: قتلت رستم ورب الكعبة إلي إلي.

فانهارت حينئذ معنويات الفرس فانهزموا وعبروا النهر فتبعهم المسلمون يخزونهم برماحهم فسقط من الفرس في النهر ألوفاً.

وقتل من المسلمين ليلة الهرير ويوم القادسية ألفان وخمسمائة، ومن الفرس في الليلة نفسها عشرة آلاف ولحق زهرة بن الحوية التميمي الجالينوس فقتله.

معركة أجنادين (الطريق إلى فتح بلاد الشام)

كان الصحابي الجليل "خالد بن سعيد بن العاص"، أول قائد عقد له أبو بكر الصديق لواء فتح الشام، وأمره بأن يعسكر بجيشه في تيماء شمالي الحجاز، وأوصاه بعدم البدء في القتال إلا إذا قُوتل، وكان الخليفة الحنيف يقصد من وراء ذلك أن يكون جيش خالد عوناً ومدداً عند الضرورة، وأن يكون عينه على تحركات الروم لا أن يكون طليعة لفتح بلاد الشام.

وحدث ما كان منه بدءاً، فقد اشتبك خالد بن سعيد مع الروم التي استنفرت بعض القبائل العربية من بهراء وكلب ولخم وجذام وغسان لقتال المسلمين، ولم تكن قوات خالد تكفي لقتال الروم، فهزم هزيمة قاسية في "مرج الصفر" في 4 من المحرم 13 هـ/ 11 من مارس 634م واستشهد ابنه في المعركة، ورجع بمن بقي معه إلى "ذي مروة" ينتظر قرار الخليفة.

الصديق يعقد أربعة ألوية:

ولما وصلت أنباء الهزيمة إلى الخليفة أبي بكر الصديق أهله الأمر، وجمع كبار الصحابة لتبادل الرأي والمشورة، واستقر الرأي على دفع العدوان، ورد الروم الذين قد يفرهم هذا النصر المفاجئ فيهددون أمن الدولة التي بدأت تستعيد أنفاسها بعد قضائها على حروب الرودة، وتوالي أنباء النصر الذي تحقق في جبهة العراق.

جهّز الخليفة الصديق أربعة جيوش عسكرية، واختار لها أكفأ قواده، وأكثرهم مراناً بالحرب وتمرساً بالقتال، وحدد لكل جيش مهمته التي سيقوم بها.

معارك إسلامية

● أما الجيش الأول فكان تحت قيادة "يزيد بن أبي سفيان"، ووجهته "البلقاء"، وهي اليوم في المملكة الأردنية الهاشمية، ويذكر "المدائني" أنه كان أول أمراء الشام خروجاً.

● وكان الجيش الثاني بقيادة "شرحبيل بن حسنة"، ووجهته منطقة "بُصرى".
● وجعل أبو بكر الصديق قيادة الجيش الثالث لـ "أبي عبيدة بن الجراح"، ووجهته منطقة "الجابية"، وقد لحق خالد بن سعيد الذي ذكرناه آنفاً بجيش أبي عبيدة.

● أما الجيش الرابع فكان بقيادة "عمرو بن العاص"، ووجهته "فلسطين".

وأمرهم أبو بكر الصديق بأن يعاونوا بعضهم بعضاً، وإذا اجتمعوا معاً فالقيادة العامة لـ أبي عبيدة بن الجراح.

وصية الصديق للقادة:

وكان الصديق كلما خرج لتوديع جيش من الجيوش الأربعة يوصي قائده بوصايا جامعة، تبين سلوك الفاتحين المسلمين وأخلاقهم في التعامل مع أهالي البلاد القادمين إليها. وأقتطف من وصية الصديق لـ يزيد بن أبي سفيان هذه الكلمات: "واني موصيكم بعشر كلمات فاحفظوهن: لا تقتلوا شيخاً فانياً ولا صبياً صغيراً ولا امرأة، ولا تهدموا بيتاً ولا بيعة، ولا تقطعوا شجراً مثمرًا، ولا تعقروا بهيمة إلا لأكل، ولا تحرقوا نخلاً ولا تُغرقوه، ولا تعص، ولا تجبن...".

وجاء في وصيته لـ عمرو بن العاص: "... اسلك طريق إيلياء حتى تنتهي إلى أرض فلسطين، وإياك أن تكون وانياً عما نذبتك إليه، وإياك والوهن، وإياك أن تقول: جعلني ابن أبي قحافة في نحر العدو ولا قوة لي به، واعلم يا عمرو أن معك المهاجرين والأنصار من أهل بدر، فأكرمهم واعرف حقهم، ولا تتناول عليهم بسلطانك.. وكن كأحدهم وشاورهم فيما تريد من أمرك، والصلاة ثم الصلاة، أذن بها إذا دخل وقتها، واحذر عدوك، وأمر أصحابك بالحرس، ولتكن أنت بعد ذلك مطلعاً عليهم..".

معارك إسلامية

وكان مجموع تلك القوات نحو 24 ألف مقاتل، وقد نجحت تلك الجيوش في التوغل في جنوبي الشام، واشتبكت في مناوشات صغيرة مع الروم، واضطر قيصرهم إلى حشد ما يملك من قوات وعتاد حتى يدفع جيوش المسلمين التي أقبلت، ولا هم لها سوى فتح تلك البلاد ونشر العدل والمساواة فيها، ولما رأى المسلمون ما يحشده الروم من قوات ضخمة أرسلوا إلى الصديق يخبرونه بحالهم ويطلبون منه المدد، فأمدهم بعكرمة بن أبي جهل ومن معه من الرجال، وكان الصديق قد استبقاهم في المدينة تحسباً لأي طارئ أو مفاجأة تحدث في أثناء الفتح، غير أن جبهة القتال لم يحدث فيها تغيير، ولم يغير المدد شيئاً مما يجري، وتجمد الموقف دون قتال يحسم الموقف في الوقت الذي كان فيه خالد بن الوليد في جبهة العراق ينتقل من نصر إلى نصر، والأبصار متعلقة بما يحققه من ظفر لا تكاد تصدق أن تتهاوى قوة الفرس أمام ضربات خالد حتى سقطت الحيرة في يديه.

الاستعانة بخالد بن الوليد:

هال الخليفة أبا بكر أن تبقى الأوضاع في الشام دون تحريك، وأن يعجز القادة المجتمعون على تحقيق النصر في أول الجولات بينهم وبين قوات الروم التي لم تكن ضعيفة الجانب قليلة الجند، وإنما كانت تعيش فترة زاهية بعد فوزها على الفرس وعودة الثقة إليها.

وعزم الصديق على بث روح جديدة تعودت الفوز والظفر، ومشى النصر في ركابها كأنه قدرها المحتوم، ولم يكن غير خالد من يمكنه تغيير الأوضاع، وإثارة الهمم، ووضع الخطط التي تأتي بالنصر، وكان الصديق أكثر الناس ثقة في كفاءة خالد وقدرته العسكرية، فأطلق كلمته السائرة التي رددتها كتب التاريخ: "والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد".

وبعث الصديق إلى خالد بأن يقدم إلى الشام ومعه نصف قواته التي كانت معه في العراق، حتى يلتقي بأبي عبيدة بن الجراح ومن معه، ويتسلم القيادة العامة للجيش كلها، وفي الوقت نفسه كتب الصديق إلى أبي عبيدة يخبره بما أقدم عليه، وجاء في كتابه: "فإني قد وليت خالدًا قتال الروم بالشام، فلا تخالفه، واسمع له وأطع أمره، فإني قد وليته عليك، وأنا أعلم أنك خير منه، ولكن ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك، أراد الله بنا وبك سبل الرشاد والسلام عليك ورحمة الله".

امتلأ خالد بن الوليد لأوامر الخليفة، وخرج من الحيرة بالعراق في 8 من صفر 13 هـ / 14 من أبريل 634م في تسعة آلاف جندي، فسار شمالاً ثم عرج حتى اجتاز صحراء السماوة في واحدة من أجرا المغامرات العسكرية في التاريخ، وأعظمها خطراً؛ حيث قطع أكثر من ألف كيلو متر في ثمانية عشر يوماً في صحراء مهلكة حتى نزل بجيشه أمام الباب الشرقي لدمشق، ثم سار حتى أتى أبا عبيدة بالجابية؛ فالتقيا ومضياً بجيشهما إلى "بصرى".

تجمعت الجيوش كلها تحت قيادة خالد بن الوليد، وحاصر بصرى حصاراً شديداً واضطرت إلى طلب الصلح ودفع الجزية، فأجابها خالد إلى الصلح وفتحها الله على المسلمين في 25 من شهر ربيع الأول 13 هـ / 30 من مايو 634م، فكانت أول مدينة فتحت من الشام صلحاً على أن يؤمنوا على دماءهم وأموالهم وأولادهم، نظير الجزية التي سيدفعونها.

الاستعداد لأجنادين:

بعد سقوط بصرى استنفر هرقل قواته، وأدرك أن الأمر جد لا هذر فيه، وأن مستقبل الشام بات في خطر ما لم يواجه المسلمون بكل ما يملك من قوة وعتاد، حتى تسلم الشام وتعود طيعة تحت إمرته، فحشد العديد من القوات الضخمة، وبعث بها إلى بصرى حيث شرحبيل بن حسنة في قواته المحدودة، وفي الوقت نفسه جهّز جيشاً ضخماً، ووجهه إلى أجنادين من جنوب فلسطين، وانضم إليه نصارى العرب والشام.

معارك إسلامية

تجمعت الجيوش الإسلامية مرة أخرى عند أجنادين، وهي موضع يبعد عن "بيت جبرين" بحوالي أحد عشر كيلو متراً، وعن الرملة حوالي تسع وثلاثين كيلو متراً، وكانت ملتقى مهماً للطرق.

نظم خالد بن الوليد جيشه البالغ نحو 40 ألف جندي، وأحسن صنعه وترتيبه على نحو جديد، فهذه أول مرة تجتمع جيوش المسلمين في الشام في معركة كبرى مع الروم الذين استعدوا للقاء بجيش كبير بلغ 90 ألف جندي.

شكل خالد جيشه ونظمه ميمنة وميسرة، وقلباً، ومؤخرة؛ فجعل على الميمنة "معاذ بن جبل"، وعلى الميسرة سعيد بن عامر، وعلى المشاة في القلب "أبا عبيدة بن الجراح"، وعلى الخيل "سعيد بن زيد"، وأقبل خالد يمر بين الصفوف لا يستقر في مكان، يحرض الجند على القتال، ويحثهم على الصبر والثبات، ويشد من أزهم، وأقام النساء خلف الجيش ييتهلن إلى الله ويدعونه ويستصرخنه ويستنزلن نصره ومعونته، ويحمسن الرجال.

وتهاى جيش الروم للقتال، وجعل قاداته الرجالة في المقدمة، يليهم الخيل، واصطف الجيش في كتائب، ومد صفوفهم حتى بلغ كل صف نحو ألف مقاتل.

اشتعال المعركة:

وبعد صلاة الفجر من يوم 27 من جمادى الأولى 13 هـ / 30 من يوليو 634م أمر خالد جنوده بالتقدم حتى يقتربوا من جيش الروم، وأقبل على كل جمع من جيشه يقول لهم: "اتقوا الله عباد الله، قاتلوا في الله من كفر بالله ولا تنكصوا على أعقابكم، ولا تهنوا من عدوكم، ولكن أقدموا كإقدام الأسد وأنتم أحرار كرام، فقد أبيتم الدنيا واستوجبتم على الله ثواب الآخرة، ولا يهولكم ما ترون من كثرتهم فإن الله منزل عليهم رجزه وعقابه، ثم قال: أيها الناس إذا أنا حملت فاحملوا".

وكان خالد بن الوليد يرى تأخير القتال حتى يصلوا الظهر وتهب الرياح، وهي الساعة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب القتال فيها، ولو أدى ذلك أن يقف مدافعاً حتى تحين تلك الساعة.

أعجب الروم بكشرتهم وغرتهم قوتهم وعتادهم فبادروا بالهجوم على الميمنة؛ حيث يقف معاذ بن جبل، فثبت المسلمون ولم يتزحزح أحد، فأعادوا الكرة على الميسرة فلم تكن أقل ثباتاً وصبراً من الميمنة في تحمل الهجمة الشرسة.

وردها، فعادوا يمطرون المسلمين بنبالهم، فتنادى قادة المسلمين طالبين من خالد أن يأمرهم بالهجوم، حتى لا يظن الروم بالمسلمين ضعفاً ووهناً ويعاودون الهجوم عليهم مرة أخرى، فأقبل خالد على خيل المسلمين، وقال: احمّلوا رحمكم الله على اسم الله فحملوا حملة صادقة زلزلت الأرض من تحت أقدام عدوهم، وانطلق الفرسان والمشاة يمزقون صفوف العدو فاضطربت جموعهم واحتلت قواهم.

فلما رأى القبطلار قائد الروم أن الأمر خرج من يده، وأن الهزيمة واقعة لا محالة بجنوده قال لمن حوله: لفوا رأسي بثوب، فلما تعجبوا من طلبه قال: يوم البئيس لا أحب أن أراه! ما رأيت في الدنيا يوماً أشد من هذا، وما لبث أن حزن المسلمون رأسه وهو ملفوف بثوبه، فانهارت قوى الروم، واستسلمت للهزيمة، ولما بلغ هرقل أخبار الهزيمة أسقط في يده وامتلاً قلبه رعباً.

بطولة وفداء:

وفي هذه المعركة أبلى المسلمون بلاءً حسناً، وضربوا أروع الأمثلة في طلب الشهادة، وإظهار روح الجهاد والصبر عند اللقاء، وبرز في هذا اليوم من المسلمين "ضرار بن الأزور"، وكان يوماً مشهوداً له، وبلغ جملة ما قتله من فرسان الروم ثلاثين فارساً، وقتلت أم حكيم الصحابية الجليلة أربعة من الروم بعمود خيمتها.

معركة إسلامية

وبلغ قتلى الروم في هذه المعركة أعداداً هائلة تجاوزت الآلاف، واستشهد من المسلمين 450 شهيداً.

وبعد أن انقشع غبار المعركة وتحقق النصر، بعث خالد بن الوليد برسالة إلى الخليفة أبي بكر الصديق يبشره بالنصر وما أفاء الله عليهم من الظفر والغنيمة، وجاء فيها: "أما بعد فإني أخبرك أيها الصديق إنا التقينا نحن والمشركون، وقد جمعوا لنا جموعاً كثيرة بأجنادين، وقد رفعوا صلبهم، ونشروا كتبهم، وتقاسموا بالله لا يضرون حتى يفنون أو يخرجونا من بلادهم، فخرجنا إليهم واثقين بالله متوكلين على الله، فطاعناهم بالرماح، ثم صرنا إلى السيوف، فقارعناهم في كل فج.. فأحمد الله على إعزاز دينه وإذلال عدوه وحسن الصنيع لأوليائه؛ فلما قرأ أبو بكر الرسالة فرح بها، وقال: "الحمد لله الذي نصر المسلمين، وأقر عيني بذلك".

معركة اليرموك (وانهيار دولة الروم)

تمكنت الجيوش الإسلامية بعد معركة أجنادين التي وقعت أحداثها في 27 من جمادى الأولى سنة 13 هـ / 30 من أغسطس 643م من أن تتابع مسيرتها الظافرة، وأن تخرج من نصر إلى نصر حتى بسطت يدها على أجزاء عظيمة من بلاد الشام ضمت بصرى وعلبك وحمص ودمشق والبلقاء والأردن وأجزاء من فلسطين.

ولم يكن أمام هرقل إمبراطور الروم سوى الاحتشاد لمعركة فاصلة بعد أن تداعت أجزاء غالية من دولته أمام فتوحات المسلمين، فبدأ يجهز لمعركة تعيد له هيئته وتسترد له ما اقتطع من دولته، وتجمعت أعداد هائلة من جنوده ومن يقدر على حمل السلاح من الروم، فأخذت تتقدم من إنطاكية -حيث يقيم- إلى جنوبي الشام.

الجيوش الإسلامية في الشام:

كانت القوات الإسلامية بعد فتح حمص سنة 14 هـ / 635م تتوزع في أماكن مختلفة، فأبو عبيدة بن الجراح في حمص، وخالد بن الوليد بقواته في دمشق، وشرحبيل بن حسنة مقيم في الأردن، وعمرو بن العاص في فلسطين.

فلما وصلت أنباء استعدادات الروم إلى أبي عبيدة بن الجراح جمع القادة يشاورهم ويستطلع رأيهم، وانتهى الحوار بينهم على انسحاب القوات الإسلامية من المدن التي فتحتها إلى موقع قريب من بلاد الحجاز، وأن تتجمع الجيوش كلها في جيش واحد، وأن يبعث أبو عبيدة بن الجراح إلى المدينة يطلب المدد من الخليفة عمر بن الخطاب.

معارك إسلامية

وقبل أن يتحرك "أبو عبيدة بن الجراح" بجيوش المسلمين، دعا "حبيب ابن مسلمة" -عامله على الخراج- وقال له: "أردد على القوم الذين كنا صالحناهم من أهل البلد ما كنا أخذنا منهم، فإنه لا ينبغي لنا إذا لم نمنعهم أن نأخذ منهم شيئاً، وقل لهم: نحن على ما كنا عليه فيما بيننا وبينكم من الصلح، لا نرجع فيه إلا أن ترجعوا عنه، وإنما رددنا عليكم أموالكم أننا كرهنا أن نأخذ أموالكم ولا نمنع بلادكم...".

فلما أصبح الصباح أمر أبو عبيدة قواته بالرحيل من حمص إلى دمشق، وقام حبيب بن مسلمة ببرد الجزية إلى أهالي حمص، وبلغهم ما قاله أبو عبيدة؛ فما كان منهم إلا أن قالوا: "ردكم الله إلينا، ولعن الله الذين كانوا يملكوننا من الروم، ولكن والله لو كانوا هم ما ردوا علينا، بل غصبونا وأخذوا ما قدرنا عليه من أموالنا؛ لولايتكم وعوذكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغش".

التحرك إلى اليرموك:

بعد أن أخلى المسلمون مدينة حمص، جاءت قوات الروم، فدخلت حمص، ثم تحركت جنوباً خلال وادي البقاع إلى بعلبك، ولم تتجه إلى دمشق حيث يقيم المسلمون؛ وإنما اتجهت إلى الجنوب.

رأى المسلمون الذين كانوا يراقبون تحركات الروم أن في مسارهم هذا حركة التفاف تستهدف حصار المسلمين وقطع خط الرجعة عليهم؛ فاجتمع أبو عبيدة بقاتلته يتباحثون الأمر، فاتفقوا على الخروج من دمشق إلى الجابية، وهناك ينضم إليهم جيش عمرو بن العاص الرايض بفلسطين، وفي الوقت نفسه ينتظرون مدد الخليفة عمر بن الخطاب.

تقدمت مجموعات من جيش الروم إلى نهر الأردن باتجاه المسلمين في الجابية، وخشي المسلمون أن يحاصروا بقوات الروم المقيمة في الأردن وفلسطين والأخرى القادمة من إنطاكية؛ فبقطعوا خطوط إمداداتهم، ويحولوا بينهم وبين منطقة شمال الأردن والبلقاء التي تربطهم بالحجاز؛ ولهذا قررت الجيوش الإسلامية الانسحاب من الجابية إلى اليرموك.

الاستعداد للمعركة:

تولى خالد بن الوليد القيادة العامة للجيش بتنازل كريم من أبي عبيدة بن الجراح، الذي كان له السلطة العامة على جيوش المسلمين بالشام، وكان خالد من أعظم الناس بلاء وأعظمهم بركة وأيمنهم نقيبة.

بدأ خالد في تنظيم قواته، وكانت تبلغ 46 ألف مقاتل، وقسم الجيش إلى كراديس، أي كتائب، وتضم ما بين 600 إلى 1000 رجل، والكردوس ينقسم إلى أجزاء عشيرة؛ فهناك العريف الذي يقود عشرة من الرجال، وأمر الأعشار الذي يقود عرفاء 100 رجل، وقائد الكردوس الذي يقود عشرة من أمراء الأعشار 1000 رجل.

ويجمع المؤرخون على أن خالد بن الوليد هو أول من استحدث تنظيم الجيوش على هذا النحو، وعُدَّ عمله فتحاً في العسكرية الإسلامية؛ فقد اختار رجال الكردوس الواحد من قبيلة واحدة أو ممن يعودون بأصولهم إلى قبيلة واحدة، وجعل على كل كردوس قائدا منهم ممن عُرفوا بالشجاعة والإقدام، ثم جمع الكراديس بعضها إلى بعض وجعل منها قلباً وميمنة وميسرة، وكان على رأس كراديس القلب أبو عبيدة بن الجراح، ومعه المهاجرون والأنصار، وعلى كراديس الميمنة عمرو بن العاص ويساعده شرحبيل بن حسنة، وعلى كراديس الميسرة يزيد بن أبي سفيان.

مطارك إسلامية

وبلغت هذه الكراديس 36 كرادوساً من المشاة، بالإضافة إلى عشرة كراديس من الخيالة، يقف أربعة منها خلف القلب واثنان في الطليعة، ووزعت الأربعة الباقية على جانبي الميمنة والميسرة.

أما جيش الروم فكان يضم نحو مائتي ألف مقاتل، يقودهم "ماهان"، وقد قسّم جيشه إلى مقدمة تضم جموع العرب المنتصرة من لخم وجذام وغسان، وعلى رأسها "جبله بن الأيهم"، وميمنة على رأسها "قورين"، وميسرة على رأسها "ابن قناطر"، وفي القلب "الديرجان"، وخرج ماهان إلى المسلمين في يوم ذي ضباب، وصَفَّ جنوده عشرين صفاً، ويقول الرواة في وصف هذا الجيش الرهيب: "ثم زحف إلى المسلمين مثل الليل والليل".

رهبان بالليل.. فرسان بالنهار:

دعا أحد قادة الروم رجلاً من نصارى العرب، فقال له: ادخل في معسكر هذا القوم، فانظر ما هديهم، وما حالهم، وما أعمالهم، وما يصنعون، ثم ائتني فأخبرني بما رأيت. وخرج الرجل من معسكر الروم حتى دخل معسكر المسلمين فلم يستنكروه؛ لأنه كان رجلاً من العرب، لسانه عربي ووجهه عربي، فمكث في معسكرهم ليلة حتى أصبح فأقام عامة يومه، ثم رجع إلى قائده الرومي، وقال له: جئتكم من عند قوم يقومون الليل كله، يصلون ويصومون النهار، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، رهبان بالليل فرسان بالنهار، لو يسرق مَلِكُهُمْ لقطعوا يده، ولو زنا لرجموه؛ لإيثارهم الحق، واتباعهم إياه على الهوى. فلما انتهى الرجل العربي من كلامه قال القائد الرومي: لئن كان هؤلاء القوم كما تزعم، وكما ذكرت لبطن الأرض خير من ظهرها لمن يريد قتالهم.

وفي فجر يوم الإثنين 5 من رجب 15 هـ / 12 من أغسطس 636م أصبح المسلمون طيبةً نفوسهم بقتال الروم، منشحة صدورهم للقائهم، واثقة قلوبهم من نصر الله، وخرجوا بالنظام الذي وضعه القائد العام يحملون رايتهم.

وسار أبو عبيدة في المسلمين يحث الناس على الصبر والثبات، يقول لهم: يا عباد الله انصروا الله ينصركم، ويثبت أقدامكم، يا معشر المسلمين اصبروا فإن الصبر منجاة من الكفر، ومرضاة للرب؛ فلا تبرحوا مصافكم، ولا تخطوا إليهم خطوة، ولا تبدعوهم بقتال، وأشرعوا الرماح، واستتروا بالدرق، والزموا الصمت إلا من ذكر الله حتى أمركم.

وخرج معاذ بن جبل يقول للناس: يا قراء القرآن ومستحفظي الكتاب وأنصار الهدى وأولياء الحق، إن رحمة الله - والله - لا تُنال، وجنته لا تدخل بالأماني، ولا يؤتي الله المغفرة والرحمة الواسعة إلا الصادقين المصدقين بما وعدهم الله عز وجل، أنتم إن شاء الله منصورون، فاطيعوا الله ورسوله، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، واصبروا إن الله مع الصابرين، واستحيوا من ربكم أن يراكم فرارا من عدوكم وأنتم في قبضته ورحمته، وليس لأحد منكم ملجأ من دونه.

اللقاء الحاسم ونتائجه:

زحفت صفوف الروم الجرارة من مكانها إلى المسلمين، لهم دويٌ كدوي الرعد، ودخل منهم ثلاثون ألفاً كل عشرة في سلسلة حتى لا يفرّوا، قد رفعوا صلبانهم، وأقبل معهم الأساقفة والرهبان والبطارقة.

وحين رأى خالد إقبالهم على هذا النحو كالسيل، وضع خطته أن يثبت المسلمون أمام هذه الهجمة الجارفة؛ حتى تنكسر وتتصدع صفوف الروم، ثم يبدأ هو بالهجوم المضاد.

معارك إسلامية

وكان خالد بن الوليد رابط الجاش ثابت الجنان وهو يرى هذه الجموع المتلاحقة كالسيل العرم، لم ترهبه كثرتهم، وقد سمع جنديا مسلما قد انخلع قلبه لما رأى منظر الروم، يقول: ما أكثر الروم وأقل المسلمين فانزعج من قولته وقال له: ما أقل الروم وأكثر المسلمين، إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال، أبالروم تخوفني؟

تلاحم الفريقان وشد الروم على ميمنة المسلمين حتى انكشفت، وفعلوا كذلك باليسرة، وثبت القلب لم يتكشف جنده، وكان أبو عبيدة وراء ظهرهم؛ ردءا لهم، يشد من أزهرهم، وأبلى المسلمون بلاء حسنا، وثبت بعضهم كالجبال الراسخات، وضربوا أروع الأمثلة في الشجاعة وتلبية النداء، وقاتلت النساء أحسن قتال.

تحمل المسلمون هذا الهجوم الكاسح بكل ثبات؛ إذا اهتز صف عاد والتأم ورجع إلى القتال، حتى إذا جاءت اللحظة التي كان ينتظرها القائد النابغة خالد بن الوليد صاح في القوم: يا أهل الإسلام، لم يبق عند القوم من الجلد والقتال والقوة إلا ما قد رأيتم، فالشدة، الشدة فوالذي نفسي بيده ليعطينكم الله الظفر عليهم الساعة.

وزحف خالد بفرسانه الذين لم يقاتلوا، وكان يدخرهم لتلك الساعة الحاسمة، فانقضوا على الروم الذين أنهكهم التعب واختلت صفوفهم، وكانت فرسان الروم قد نفذت إلى معسكر المسلمين في الخلف، فلما قام خالد بهجومه المضاد من القلب حال بين مشاة الروم وفرسانهم، الذين فوجئوا بهذه الهجمة المضادة؛ فلم يشتركوها في القتال، وخرجت خيلهم تشتد بهم في الصحراء، تاركين ميدان القتال. ولما رأى المسلمون خيل الروم تهرب أفسحوا لها الطريق ودعوها تغادر ساحة القتال.

انهار الروم تماما، وتملكهم الهلع فتزاحموا وركب بعضهم بعضا وهم يتقهقرون أمام المسلمين الذين يتبعونهم؛ حتى انتهوا إلى مكان مشرف على هاوية تحتهم، فأخذوا يتساقطون فيها ولا يبصرون ما تحت أرجلهم، وكان الليل قد أقبل والضباب يملأ الجو، فكان آخرهم لا يعلم ما يلقي أولهم، وبلغ الساقطون في هذه الهاوية عشرات الألوف، وتذكر بعض الروايات أنهم كانوا ثمانين ألفا، وسميت تلك الهاوية "الواقوصة"؛ لأن الروم وقصوا فيها، وقتل المسلمون من الروم في المعركة بعدما أدبروا نحو خمسين ألفا، خلاف من سقطوا في الهاوية.

ولما أصبح اليوم التالي، نظر المسلمون فلم يجدوا في الوادي أحدا من الروم، فظنوا أن الروم قد أعدوا كميناً، فبعثوا خيلاً لمعرفة الأمر، فإذا الرعاة يخبرونهم أنهم قد سقطوا في الهاوية أثناء تراجعهم، ومن بقي منهم غادر المكان ورحل.

كانت معركة اليرموك من أعظم المعارك الإسلامية، وأبعدها أثرا في حركة الفتح الإسلامي، فقد لقي جيش الروم. أقوى جيوش العالم يومئذ.

هزيمة قاسية، وفقد زهرة جنده، وقد أدرك هرقل حجم الكارثة التي حلت به وبدولته، فغادر المنطقة نهائيا وقلبه ينفطر حزنا، وهو يقول: "السلام عليك يا سوريا، سلاما لا لقاء بعده، ونعم البلد أنت للعدو وليس للصديق، ولا يدخلك رومي بعد الآن إلا خائفا".

وقد ترتب على هذا النصر العظيم أن استقر المسلمون في بلاد الشام، واستكملوا فتح مدنه جميعا، ثم واصلوا مسيرة الفتح؛ فضموا مصر والشمال الإفريقي.

معركة طاوس

لم يكد ينتهي المسلمون من طاعون عمواس حتى وافاهم أمر آخر؛ فإن العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه -كما نعلم- كان قائد الجيش السابع من الجيوش التي وجهها أبو بكر الصديق لقتال المرتدين وفتح البحرين، وقد قام بفتح البحرين وأصبح أميراً لها من قبل أبي بكر الصديق، ثم أقره عمر بن الخطاب على عمله بعد خلافته.

وقد كان العلاء بن الحضرمي نفساً تواقاً إلى الجهاد، ورأى العلاء بن الحضرمي ما حققه المسلمون من انتصارات كبيرة على أرض فارس، فأراد أن يشارك في الجهاد ضد الدولة الفارسية كما يجاهد إخوانه، رغم القرار الذي أصدره عمر بن الخطاب بوقف التوغل في الأراضي الفارسية، فقرر اجتهداً منه رضي الله عنه إرسال بعض الفرق للجهاد شرقي خليج فارس، عبر الخليج العربي (الفارسي في ذلك الوقت)، في الوقت الذي كانت منطقة نفوذ المسلمين حتى رامهرمز، وهذه المنطقة كلها تقع شمال هذه المنطقة تماماً، وهذه المنطقة تسمى جنوب الأهواز وبعيدة عن نفوذ المسلمين ولا تقع تحت إمرة الهرمزان، فهي بعيدة إذن عن المسلمين، ولم يدخلها المسلمون من قبل، فأراد سيدنا العلاء أن يفتح هذه المنطقة، فجهز جيشاً من البحرين، وقسم الجيش إلى ثلاث فرق رئيسية؛ على رأس الفرقة الأولى الجارود بن المعلّى، وكان الجارود بن المعلّى الثواب الجزيل من الله تعالى؛ وذلك لما ارتدت الجزيرة العربية كلها إلا قرية "جَوَاثَا" قرية الجارود بن المعلّى؛ فقد قام فيهم خطيباً ليثبتهم على الإسلام، وأعلن أنه على دين الإسلام، وأنه سيقاقل كل من ارتدّ عن دين الله، فثبت قومه على الإسلام بعد مقاتله، فكان الجارود بن المعلّى على رأس فرقة من الجيش الذي أرسله العلاء بن الحضرمي إلى شرق فارس.

وعلى رأس الفرقة الأخرى أحد القادة وهو سوار بن همام، والفرقة الثالثة على رأسها خُلَيْد بن المنذر بن ساوي، والمنذر بن ساوي هو الذي أعطى العهد للنبي بإسلامه وبإسلام البحرين كلها، وكان رجل حسن السيرة وكان من الصالحين، وبموته ارتدت البحرين، فرضي الله عنه وأرضاه، وخُلَيْد هذا ابنه. فنزل الجيش بفرقه الثلاثة في الجهة الشرقية من خليج فارس، وأمر على الفرق الثلاثة خَلِيد بن المنذر بن ساوي، ونزل الجيش في منطقة تسمى منطقة "طاوس".

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد أصدر أمراً بعدم غزو المسلمين للبحر إلا بعد إذنه؛ وبذلك يكون العلاء بن الحضرمي قد خالف عمر بن الخطاب في أمرين، وهما: نهي عمر بن الخطاب عن التوغل في بلاد فارس. والأمر الثاني: مخالفة عمر بن الخطاب في غزوه لبلاد فارس عبر البحر بالسفن من البحرين إلى الشاطئ الشرقي من خليج فارس.

وعسكر المسلمون في طاوس، وبمجرد نزولهم في طاوس يخرج لهم جيش فارس على رأسه قائد من قواد الفرس يدعى "هريد"، وتدور بين الجيوش الثلاثة وهريد معركة شديدة على المسلمين، ويفلح هريذ هذا في الالتفاف حول الجيش الإسلامي ويفرق السفن في المياه، ولم يكن أمام المسلمين إلا القتال أمام الفرس، ولم يكن أمامهم خط رجعة للبحرين، وكانت هذه المعركة شديدة على المسلمين وعلى الفرس، وأحدث المسلمون خسائر فادحة في صفوف الفرس لكن على حساب شهداء كثير من المسلمين، وكان ذلك تكراراً لمشكلة الجسر بمعصية القائد المباشر للقائد الأعلى، فتكرر المشكلة للمرة الثانية، ويخسر المسلمون كثيراً من الشهداء منهم الجارود بن المعلّى وسوار بن همام رضي الله عنهما، وهما من قادة الجيش، ويبقى خَلِيد بن المنذر بن ساوي على رأس الجيوش يحضرهم على القتال، ويذكّرهم أنه لم يبقَ أمامهم إلا قتال الفرس، وانتصر المسلمون على جيش الفرس انتصاراً عظيماً، لكن بعد انتصار الجيش على الفرس لم يجد المسلمون السفن التي تحملهم إلى البحرين، ولم يجد أمامه إلا اللجوء إلى أرض البصرة

معارك إسلامية

ليست نجد بجيش المسلمين الذي يعسكر في البصرة، وفي طريقه إلى البصرة يعترضه جيش آخر من "إصطخر" على رأسه قائد يدعى "شهرك"، ويحاصر الجيش الإسلامي في مكان قريب من مدينة طاوس، في ذلك الوقت تصل الأنباء إلى سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه في المدينة أن العلاء أرسل جيشاً لحرب الفرس، وأن الجيش قد انتصر في المعركة ودخل في معركة أخرى، وحُصِرَ الجيش الإسلامي ولم يجد أمامه حلاً، وبمجرد وصول هذا الخبر إليه يقرر عزل العلاء بن الحضرمي من الإمارة، وأرسله إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه تحت إمرته جندياً من جنوده في الكوفة..

فكان هذا أول عقاب عاقبه عمر بن الخطاب له على معصيته الشديدة التي ألحقت الأذى بالمسلمين في معركة طاوس، ثم أرسل رسالة إلى عتبة بن غزوان رضي الله عنه بأن يُخرج جيشاً كثيفاً من المسلمين لنجدة الجيش الإسلامي الموجود في هذه المنطقة على خطورتها، فهي منطقة جبال والمسلمون لم يتعودوا على هذه الأرض، وعلى إثر هذه الرسالة يجهز عتبة بن غزوان في أقل من يومين جيشاً تعداده اثنا عشر ألف مقاتل، ومع المسلمين في الجيش عاصم بن عمرو التميمي، وحذيفة بن محصن قائد الجيش الثامن من جيوش الردة، وعرفجة بن هرثمة قائد الجيش التاسع من جيوش الردة، وكان على رأس الجيوش أبو سبرة بن أبي رهم، ويبدو أن أبا سبرة من الكفاءات الحربية النادرة لدرجة أن يضع عتبة بن غزوان القادة العظام تحت إمرته، ويوافق على ذلك عمر بن الخطاب في المدينة.

فخرج الجيش وسار بجوار شط العرب، ثم بجوار شاطئ خليج فارس على الجبال يُجَنَّبون الخيل ويركبون البغال سراعاً؛ لأن البغال الفارسية التي غنموها من فارس تستطيع السير على الجبال بخلاف الخيول العربية، وفي ذلك مرونة شديدة للجيش الإسلامي واستغلالاً للمواقف.

ويصل الجيش الإسلامي إلى الجيش المحاصر في منطقة فارس، ويدخل المسلمون مع جيش "شهر ك" في معركة شديدة، وكانت النتيجة أن انهزمت القوات الفارسية هزيمة منكرة واجتاحهم المسلمون، واستطاع الجيش الإسلامي أن يفك الحصار عن الجيش المحاصر ورجع به إلى البصرة، فلم يكن مطلوباً منهم فتح هذه البلاد.

وكانت عودة الجيش الإسلامي في أواخر ذي القعدة وبداية ذي الحجة، فاستأذن عتبة بن غزوان من عمر بن الخطاب في أواخر العام السابع عشر الهجري أن يذهب للحج هذا العام، فوافق عمر على طلبه؛ فيستخلف عتبة على البصرة المخيرة بن شعبة وهو من صحابة النبي وكان الحارس الخاص لرسول الله، وكان في الوفد الذي ذهب إلى يزدجرد (كانوا أربعة عشر رجلاً، وكانوا يعدون الرجل في هذا الوفد بألف رجل)، وكان يتكلم الفارسية.

وبعد انتهاء عتبة بن غزوان من الحج يأمره عمر بن الخطاب بالرجوع إلى البصرة أميراً كما كان؛ فيرفض عتبة بن غزوان ويسأل عمر بن الخطاب أن يُقِيلَهُ فلم يفعل، فلما وجد عمر بن الخطاب إصراره على رفض الإمارة قال: "تَوَلُّوني فيها ثم تتركوني وحدي".

وفي ذلك الوقت كان عمر يعرض الإمارة على أكثر من مسلم، وكلهم يرفضها على عكس أزمانٍ أخرى يتقاتل الناس فيها عليها، ولما أصر عتبة بن غزوان على رفضه أقسم عليه عمر ليرجعن إلى عمله.

وفي الطريق إلى البصرة يدعو عتبة بصوت يسمعه أصحابه ويقول: اللهم إن كان لي عندك خيرٌ فخذني ولا تبليغني البصرة، فاستجاب الله دعاءه، فيسقط من فوق ناقته ويموت رضي الله عنه في طريقه إلى البصرة.

معارك إسلامية

وبعد موت عتبة بن غزوان رضي الله عنه يُقرُّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه المغيرة بن شعبه رضي الله عنه على البصرة، ثم يستخلف بعده بقليل أبا موسى الأشعري رضي الله عنه.

ويتتبع الأحداث في العام السابع الهجري نجد أن المنطقة التي أضيفت إلى نفوذ المسلمين هي منطقة الجزيرة بالكامل، لكن نفوذ المسلمين في شرق فارس لم يتغير عن العام السادس عشر الهجري، وبناءً على قرار عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يتوغل المسلمون في منطقة فارس، وحتى الجيش الذي خرج من البصرة لينقذ المسلمين في موقعة طماوس رجع ولم يتوغل في الأراضي الفارسية، ولم يسيطر على هذه المنطقة.

بهرسير (الطريق إلى المدائن)

كان المسلمون يرون فتح بلاد فارس أمراً صعب المنال، ومن ثم فقد كانوا يتهيبون غزوها، ولم يسعوا لقتالها. فلما ولي عمر بن الخطاب الخلافة، ورأى أن بلاد فارس قد أصبحت مسرحاً للفوضى والاضطرابات صبح عزمه على غزوها، وشجعه على ذلك تلك الهزيمة التي لحقت بالروم في أجنادين سنة 15هـ 636م، واطمئنانه أنهم لم يعودوا يمثلون خطراً على المسلمين .

ووقع اختيار عمر بن الخطاب على واحد من أكفأ القادة المسلمين، وأكثرهم حماساً واستعداداً لمواجهة الفرس، وكان ذلك القائد هو سعد بن أبي وقاص فسيّره في جيش كبير إلى العراق وفارس.

انتصار القادسية:

استطاع سعد في نحو عشرة آلاف فارس أن يحقق نصراً ساحقاً على الفرس في القادسية، وكان قائد الفرس حينذاك رستم ذا الحاجب على رأس جيش بلغ مائة وعشرين ألف مقاتل، حيث دارت معركة عنيفة كانت من أهم المعارك في التاريخ بين المسلمين والفرس، واستمرت المعركة عدة أيام، حتى تحقق النصر للمسلمين، وفر رستم وجنوده، وغنم المسلمون فيها مغانم كثيرة .

كان انتصار المسلمين في القادسية دافعاً لهم للاستمرار في زحفهم نحو المدائن عاصمة الفرس، وسار سعد بجنوده حتى وصل إلى بهرسير وكانت إحدى حواضر فارس، فنزل سعد قريباً منها، وأرسل مجموعة من جنوده لاستطلاع الموقف، وعاد هؤلاء الجنود وهم يسوقون أمامهم آلافاً من الفلاحين، من أهل تلك المدينة .

معارك إسلامية

وحيثما علم شيرزار دهقان أمير ساباط بالأمر أرسل إلى سعد يطلب منه إطلاق سراح هؤلاء الفلاحين، ويخبره أنهم ليسوا مقاتلين، وإنما هم مجرد مزارعين أجراء، وأنهم لم يقاتلوا جنوده؛ فكتب سعد إلى عمر يعرض عليه الموقف ويسأله المشورة: "إنا وردنا بهرسير بعد الذي لقينا فيما بين القادسية وبهرسير، فلم يأت أحد لقتال، فبثت الخيول، فجمعت الفلاحين من القرى والأجام.. فأريك".

فأجابه عمر: "إن من أتاكم من الفلاحين إذا كانوا مقيمين لم يعينوا عليكم فهو أمانهم، ومن هرب فأدر كتموه فشانكم به" .. فلما جاءه خطاب عمر خلى سعد سبيلهم .

حصار.. وفتح:

وأرسل سعد إلى الدهاقين- رؤساء المدن والأقاليم- يدعوهم إلى الإسلام على أن يكون لهم ما هم عليه من الإمارة والحكم، أو الجزية ولهم الذمة والمنعة، فدخل كثير منهم الإسلام لما وجدوه من سماحة المسلمين وعدلهم مع ما هم عليه من بأس وقوة ولكن بهرسير امتنعت عنه، وظن أهلها أن حصونها تحول دون فتح المسلمين لها، فحاصرها سعد بجنوده طوال شهرين يرمونها بالمجانيق، ويدكونها بالدبابات التي صنعوها من الجلود والأخشاب؛ وكان الجنود يحتمون بها وهم يعاودون مهاجمة أسوار المدينة المرة بعد الأخرى، ويقاتلونهم بكل عدة. ولكن المدينة كانت محصنة فنصب سعد حولها عشرين منجنيقاً في أماكن متفرقة ليشغلهم ويصرفهم عن ملاحظة تقدم فرسانه نحو المدينة لاقتحامها .

وأحس الفرس بمحاولة المسلمين اقتحام المدينة؛ فخرج إليهم عدد كبير من الجنود الفرس ليقاتلوهم ويمنعوهم من دخول المدينة، وضرب المسلمون أروع الأمثلة في البطولة والفداء، وقوة التحمل والحرص على الشهادة، وكان القائد زهرة بن الجويّة واحداً من أولئك الأبطال الشجعان الذين سطروا بدمائهم ملحمة الانتصار، وكان عليه درع مفصومة، فأرادوا أن يصلحوها له قبل أن يخرج للقتال حتى لا يصيبه سهم من خلالها، ولكنه أبى، وقال: "إني لكريم على الله، إن ترك سهم فارس الجند كله ثم أتاني من هذا الفصم حتى يثبت في".

وانطلق يقاتل في جراحة وشجاعة، حتى أصيب بسهم في ذلك الفصم، فتحامل على نفسه حتى استطاع أن يصل إلى قائد الفرس شهريراز، فضربه بسيفه فقتله.. وما إن رأى جنود الفرس قائدهم يسقط على الأرض مدرجاً في دمائه حتى تملكهم الهلع والذعر، وتفرق جمعهم، وتشتت فرسانهم، وانطلقوا يفرون على غير هدى إلى الجبال .

وظل المسلمون يحاصرون بهرسير بعد أن فر الجنود والتحقوا بالضيافة والجبال، واشتد حصار المسلمين على المدينة؛ حتى اضطر أهلها إلى أكل الكلاب والقطط، فأرسل ملكهم إلى المسلمين يعرض الصلح على أن يكون للمسلمين ما فتحوه إلى دجلة، ولكن المسلمين رفضوا وظلوا يحاصرون المدينة، ويضربونها بالمجانيق، واستمر الحال على ذلك فترة من الوقت .

ويدت المدينة هادئة يخيم عليها الصمت والسكون، وكأنه لا أثر للحياة فيها، فحمل المسلمون عليها ليلاً، وتسلقوا أسوارها وفتحوها، ولكن أحداً لم يعترضهم من الجنود، ولم يجدوا فيها إلا عدداً من السكان ساقوهم أسرى.. ودخل المسلمون بهرسير فاتحين بعد أن حاصروها زمناً طويلاً .

الصلاة بإيوان كسرى:

كان الظلام قد أرخى سدوله على المدينة، وكان ضوء القمر يرسم أشباح المنازل القابعة في أحضان سور المدينة العالي الحصين، وانتشر فرسان المسلمين ليحكموا سيطرتهم على المدينة، وفجأة لاح لهم قصر كسرى الشامخ بلونه الأبيض وبنائه السامق العجيب؛ فراحوا يكبرون.. وهم يتذكرون وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعرش كسرى، وانطلق تكبيرهم يشق سكون الليل ويتردد في الفضاء .

ودخل سعد مع جنوده القصر الأبيض، وصلى في إيوان كسرى شكراً لله على النصر.. فقد كان انتصار المسلمين وفتحهم لمدينة بهرسير الحصينة هو بداية الطريق إلى فتح المدائن عاصمة الفرس المنيع القوية.

معركة ذات الصواري

(أول معركة بحرية في تاريخ الإسلام)

معركة بحرية دارت رحاها سنة 34 هـ / 655 م على مياه نهر الروم - البحر المتوسط- بين الأساطيل العربية بقيادة والى مصر اذ ذاك عبد الله بن أبى سرح، وبين سفن الروم الحربية بقيادة الامبراطور قنسطانز. وكان السبب فى تلك الموقعة هو محاولات الروم ايقاف نشاط العرب البحرى الذى تولى توجيهه كل من معاوية والى الشام وعبد الله بن أبى سرح ضد قواعد الروم بجزر شرق البحر المتوسط. والحيلولة بين العرب وبين الاستيلاء على تلك الجزر، حيث استولت الأساطيل العربية منذ سنة 28 هـ / 649 م على جزيرة قبرص وغيرها من الجزر المجاورة التى هدد منها الروم كل من الشام ومصر.

وتعتبر مجهودات عبد الله بن أبى سرح فى موقعة ذات الصواري نموذجا للأعمال الجليلة التى قدمتها مصر فى سبيل بناء البحرية العربية الاسلامية منذ فجر حياتها. فإذا كان معاوية بن أبى سفيان هو صاحب الفضل فى توجيه العرب إلى محاربة الروم فى شرق البحر المتوسط، فإن عبد الله بن أبى سرح هو الذى قام ببناء السفن الحربية الأولى، التى كونت نواة الأسطول العربى. ذلك أن مصر كانت تنفرد إذ ذاك بقيام "دور الصناعة"، فيها والتى اختصت بصناعة السفن. وجرت العادة إذ ذاك على أن تشحن تلك السفن من مصر، ثم تنطلق إلى بلاد الشام، حيث تعزز بالمقاتلة أيضا وتعمل على القيام من موانئ الشام بالهجوم على جزر الروم، وضرب قواعد أسطول الروم هناك وشل نشاطه ضد سلطان العرب. وخشى الامبراطور قنسطانز الثانى إزدياد الأساطيل العربية المنطلقة من مصر والشام، ورأى العمل على ضرب قواعد تلك الأساطيل فى هذين القطرين العربيين واستعادة سلطان الروم أيضا فى تلك الجهات الحيوية من شرق البحر المتوسط. واتجه هذا الامبراطور إلى اقليم اسيا الصغرى، الذى كان يمثل إذ ذاك مصدر تموين الأمبراطورية بالرجال والعتاد لبناء سفن حربية يحقق بها مشروع استعادة سلطان الروم فى مصر والشام. وكانت اسيا الصغرى تشتهر بصفة خاصة ببحارتها الأقوياء، وخبرتهم العالية بفنون القتال.

وبادر الامبراطور قنسطانز بدفع أسطول له الجديد إلى عرض مياه البحر المتوسط، حيث تزامنت اليه سنة 655 م أنباء استعدادات بحرية هائلة يعدها معاوية بن ابي سفيان وعبد الله بن أبي سرح، لضرب القسطنطينية نفسها عاصمة الروم، وشل تعزيزاتها لقواعد الروم البحرية في شرق البحر المتوسط.

وخرج الامبراطور على رأس أساطيله مستهدفا تدمير سفن الأسطول العربى قبل إبحارها من قواعدها. واستعان قنسطانز بعمالء الروم في الشام لاشاعة الفوضى في المدن البحرية تمهيدا لحملة المنتظرة.

واذا كانت استعدادات الروم قد دلت على أن قنسطانز قد صمم على وضع حد لنشاط البحرية العربية وكسر شوكتها نهائيا، فإن المجهودات التي بذلها والى مصر عبد الله بن ابي سرح قد اثبتت أن الاسطول العربى صار قوة ليس من السهل النيل منها، فضلا عن أن التعاون البحرى بين مصر والشام قد بلغ أوجه منذ هذه الفترة المبكرة من نشاط العرب البحرى، فقد خرج والى مصر بنفسه على رأس الاسطول العربى، وخلد اسم مصر فى خدمة العرب من أجل النصر فى أعظم المعارك البحرية الفاصلة فى تاريخ البحر المتوسط.

وبدا العرب القتال باستخدام الأقواس والسهام وهو السلاح الذى اجادوا استخدامه فى جميع حروبهم. غير أن الامبراطور قنسطانز أدرك تفوق جنده على العرب لأن السلاح الذى اعتمدوا عليه لا يفيد الا فى الحروب البرية فقط، وأن الميدان الآن بحريا وليس برىا. وأدرك قنسطانز أن سلاح الغرب سوف ينفذ سريعا، مما يحملهم على ضرورة تغيير خططهم بما يكفل له النصر عليهم.

وتحقق ما رآه قنسطانز إذ اضطر العرب إلى استخدام الحجارة فى القتال بعد أن نفذت الأقواس والرماح. ولم يؤد ذلك إلى تغيير رأى قنسطانز الذى أدرك أن سلاح العرب الجديد لن يفيدهم شيئا لأنه سلاح برى أيضا وأنه سوف ينفذ سريعا كذلك، وأن الموقف لابد وأن ينجلي فى صالح الروم.

معركة إسلامية

غير أن العرب حين رأوا نفاذ ذخيرتهم من الحجارة وكذلك وأن العدو مازال بعيدا عن متناول سفنهم، وأنه يراوغ ويماطل لانهاك قواهم ربطوا سفنهم بعضها إلى بعض وقذفوا خطاطيف في البحر جذبوا بها سفن الروم إليهم. ثم اتخذ العرب بعد ذلك من ظهور السفن المتلاحمة ميادين قتال أشبه بالميادين البرية التي سبق أن أجادوا فنون القتال فيها. ولذا حين وصلت أنباء تلك الخطة الجديدة إلى الامبراطور قنسطانز أدرك فشل حملته وأن الهزيمة لاشك محيطة بجنده وتدمير مشروعه الحربي الكبير. وتحقق استنتاج قنسطانز إذ وثب العرب على الروم بالسيوف والخناجر واعملوا فيهم التقتيل، واشتد الصراع وكثر القتلى حتى وصف شاهد عيان هذه المعركة قائلا: "رجعت الدماء إلى الساحل تضربها الأمواج، وطرحت جثث الرجال ركاما"، وبرهن العرب مرة أخرى على مقدرتهم الفائقة في تطوير أسلوب القتال طبقا لمجريات الأحداث، دون التقيد بأسلوب تقليدي. وظل القتال على هذا النحو في تلك المرحلة الأخيرة من المعركة حيث استبسل الفريقان، وأبدى كل منهما من صنوف التفاني في الواجب، ومن ضروب الشجاعة ما سجلته مراجع العرب والروم التاريخية على السواء، إذ أدرك الفريقان المتحاريان أنهما يخوضان معركة فاصلة، يتوقف عليها تقرير سلطانهما على مياه هذا البحر الهام في تاريخ الانسانية، منذ أقدم العصور وكان الامبراطور قنسطانز قد عمد أثناء هذا الوقت العصيب من القتال إلى نشر الفوضى في صفوف العرب لافساد خططهم الجديدة التي لجأوا إليها من التلاحم في القتال. وكانت خطة الامبراطور تقضى بعزل سفينة القيادة العربية وحرمان المقاتلين العرب من تعليماتها وتوجيهاتها.

وأمر الامبراطور أحد جنده بقذف خطاف علق بسفينة أمير البحر العربي وإلى مصر، عبد الله بن أبي سرح، على حين أخذ سائر جند الروم يجنبون. ذلك المركب العربي إليهم بعيدا عن ميدان القتال. وكاد الروم ينجحون في أسر مركب القيادة العربية، لولا شجاعة أحد المقاتلين العرب ويدعى علقمة. إذ رمى هذا الجندي بنفسه على السلاسل التي كانت تجذب القيادة العربية، وأعمل فيها القطع برغم ما تعرض له من ضربات العدو وسهامه وتكلىل عمل علقمة بالنجاح، إذ قطع السلسلة وأنقذ سفينة القيادة العربية من الوقوع في الأسر.

ونال هذا الجندي العربي ثناء زوجة أمير البحر، التي كانت تسمى بثينة حيث كانت على ظهر السفينة أثناء القتال. وقد شاعت الأقدار فيما بعد أن يظفر الجندي بزواجه من بثينة بعد وفاة زوجها.

واظهر الروم أيضا تفانيا أثناء تلك المعركة في الدفاع عن سفينة قيادتهم حين دارت الدائرة عليهم. إذ عمد العرب بعد نجاحهم في إنقاذ سفينة قيادتهم إلى الهجوم على الروم بشدة، واقتحموا السفينة المقيم عليها الامبراطور واعملوا القتل في رجالها. وكاد الامبراطور نفسه يقع في قبضة العرب لولا انه تنكر بارتداء ملابس ابن أحد ضاربي الطبول على السفينة وهرب من المعركة على ظهر مركب اخر إلى جزيرة صقلية.

ويضار الامبراطور قضى الأسطول العربي على تلك الحشود البحرية، التي أعدها الروم لاستعادة سلطانهم على مصر والشام. ومن ثم تعتبر تلك المعركة التي عرفها العرب باسم موقعة ذات الصواري بسبب كثرة صواري السفن المشتركة في القتال، من المعارك التي غيرت مجرى تاريخ البحر المتوسط وتشتهر تلك المعركة في مراجع الروم الأوربيين باسم موقعة "فوينكس" وهو مكان على ساحل ليكيا بآسيا الصغرى، حيث دارت عنده رحى القتال وقد طلق الروم بعد تلك المعركة كل مشروع لاسترداد مصر أو الشام من العرب وصار البحر المتوسط يشهد قوة العرب البحرية وحرية أن يدخل عهدا جديدا صار فيه قوة بحوية اسلامية.

غزوة مؤتة

اتَّسَمَت العلاقات بين المسلمين والروم بالتوتر، فقد دأبت الروم ومن والاهما من العرب على مضايقة المسلمين واستفزازهم بكل الطرق، وكان من أظهرها المحاولات المتكررة للتعريض لتجارة المسلمين القادمة من الشام، والقيام بالسلب والنهب للقوافل التي تمرّ بطريقهم، ناهيك عما مارسوه من ضغوطات ومضايقات طالبت كل مسلم وقع تحت أيديهم.

وبلغ الأذى ذروته حين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الحارث بن عمير الأزدي رسولاً إلى ملك بصرى من أرض الشام يدعوه إلى الإسلام، فما كان من ملك بصرى شرحبيل بن عمرو الفساني إلا أن قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاشتد ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ إذ كان هذا هو أول رسولٍ له يُقتل على خلاف ما جرت العادة من إكرام الرسل وعدم التعرض لهم.

فدعا النبي صلى الله عليه وسلم الناس للخروج ومقاتلة الروم حتى يضع حداً لهذه التصرفات الهمجية ولأجل تأديبهم، وسرعان ما اجتمع عند النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة آلاف مقاتل، فعقد الراية لثلاثة منهم وجعل إمرتهم بالتناوب، فقال صلى الله عليه وسلم: "إن أصيب زيد بن حارثة فجعفر بن أبي طالب فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة" رواه البخاري ومسلم، فتجهّز الناس وخرجوا، وكان ذلك يوم الجمعة من السنة الثامنة للهجرة النبوية، فلما ودّع الناس أمراء رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسلّموا عليهم، بكى عبد الله بن رواحة فقالوا: ما يبكيك يا ابن رواحة فقال: "أما والله ما بي حب الدنيا ولا صباة بكم، ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار: ﴿وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً﴾ (مريم، الآية 71) فلست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود؟ فقال المسلمون:

صحبكم الله، ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين، فأجابهم عبد الله بن رواحة:

لكنني أسأل الرحمن مفضرة وضربة ذات فرغ تقذف الزيدا
أو طعنة بيدي حران مجهزة بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقال إذا مروا على جدتي أرشده الله من غار وقد رشدا

وأوصى النبي صلى الله عليه وسلم صحابته قائلاً: "اغزوا باسم الله
وفي سبيل الله، وقاتلوا من كفر بالله. اغزوا ولا تغدروا، ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا
تقتلوا وليدا ولا أصحاب الصوامع".

وسار المسلمون حتى نزلوا معانا -اسم قرية- من أرض الشام، فبلغهم أن
هرقل قد نزل مأب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم، وانضم إليه مائة ألف
أخرى من القبائل العربية الموالية له كلخم، وجذام، وبلقين، وبهراء، فاجتمع
لهرقل مائتي ألف مقاتل، فعقد المسلمون مجلساً للتشاور، فقال بعضهم: نكتب
لنبي صلى الله عليه وسلم نخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال، وإما أن
يأمرنا بأمره فنمضي له، وقال آخرون: قد وطئت البلاد وأخفت أهلها، فانصرف؛
فإنه لا يعدل العافية شيء. وعبد الله بن رواحة رضي الله عنه ساكت، فسأله زيد
عن رأيه فقال: يا قوم والله إن الذي تكرهون للذي خرجتم له تطلبون الشهادة، ما
نقاتل الناس بعدد، ولا عدة، ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا
الله به، فانطلقوا وإنما هي إحدى الحسنين، إما ظهور، وإما شهادة، فقال الناس:
صدق والله ابن رواحة، فمضوا حتى إذا قاربوا البلقاء -منطقة بالشام- لقيتهم
جموع هرقل من الروم والعرب بقرية يقال لها مشارف، فدنا العدو وانحاز المسلمون
إلى قرية يقال لها: مؤتة وتسمى اليوم بالكرك، فالتقى الناس عندها، فتجهز
المسلمون وجعلوا على ميمنة الجيش قطبة بن قتادة رجل من بني عذرة، وعلى
الميسرة أنصاريُّ يقال له عبادة بن مالك.

معارك إسلامية

والتحم الجيشان وحمي الوطيس، واقتتلوا قتالاً شديداً، وقتل أول قادة المسلمين زيد بن حارثة رضي الله عنه، مقبلاً غير مدبر، فأخذ الراية جعفر بن أبي طالب بيمينه، فقطعت يمينه رضي الله عنه، فأخذ الراية بشماله فقطعت، فاحتضنها بعضديه حتى قتل رضي الله عنه، فأخذ الراية عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، ثم تقدم بها على فرسه فجعل يستنزل نفسه، ولما نزل أتاه ابن عم له بقطعة لحم، فقال: اشدد بها صلبك، فإنك قد لقيت أيامك هذه ما لقيت، فأخذه من يده، فنهش منه نهشة، ثم سمع تدافع الناس للقتال فقال: وأنت في الدنيا! ثم ألماه من يده، وأخذ سيفه، فتقدم فقاتل حتى قُتل، ثم أخذ الراية ثابت ابن أرقم بن ثعلبة الأنصاري فقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم، فقالوا: أنت فقال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد.

وقد سارع الوحي إلى إبلاغ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحداث المعركة، فعن أنس رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم نعى زيدا وجعفرًا وابن رواحة للناس قبل أن يأتهم خبرهم فقال: "أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب -وعيناه تذرفان- حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله، حتى فتح الله عليهم".

وبعد أن استلم الإمرة خالد أراد أن ينقذ الجيش الإسلامي بطريقة تحفظ له كيانه وتبقي هيئته، وقدر أن الحل يكمن بالانسحاب بعد إرهاب العدو وإيهامه بوصول إمدادات جديدة، فصمد حتى الليل واستغل الظلام ليغيّر مراكز المقاتلين وحول الميسرة ميمنة، والميمنة ميسرة، والمؤخرة مقدمة والعكس، وطلب من خيالة المسلمين اصطناع غبارٍ وجلبة قويّة، فظن الروم أن المسلمين جاءهم مدد، فخارت عزائمهم، واشتدّ عليهم المسلمون حتى يقول خالد رضي الله عنه: لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية، وهكذا نجح خالد في العودة بالجيش إلى المدينة بأقلّ خسارة ممكنة، وقُتل من الروم خلقٌ كثير لا يُعرف عددهم وكان في ذلك نصرٌ كبير للإسلام والمسلمين.

ولما وصل خالد إلى المدينة، أخذ بعض المسلمين في عتاب من قر في بداية المعركة، فخشي أولئك من غضب الله ورسوله حتى همّوا أن يركبوا البحر، ثم قالوا : لو عرضنا أنفسنا على رسول الله، فإن كانت لنا توبة وإلا ذهبنا، فأتوه قبل صلاة الغداة فخرج فقال: "من القوم؟" فقالوا: نحن الفرارون فقال: "لا بل أنتم الكرارون، أنا فنتكم وأنا فئة المسلمين" فأتوه وقبلوا يده الشريفة.

هذه هي غزوة مؤتة تكاد تتفجر عظة وعبرة، فما إن يقرأ القارئ هذه الأحداث إلا ويجد الإعجاب قد عقد لسانه، فأى بشر هؤلاء، يقضون بجيش قوامه ثلاثة آلاف مقاتل أمام جيش هائل قوامه مائتي ألف مقاتل، إن تصورا سريعا للقوتين ليعطي نتائج حاسمة بانتصار الجيش الكبير على الجيش المقابل، ومع ذلك يتقدم المسلمون على قلة عددهم، وضعف عددهم - آلة الحرب - ليضربوا أعظم صور التضحية والفداء، بل ولينتصروا على ذلك العدو، في أعظم مهزلة يتعرض لها جيش الإمبراطورية الرومانية، إن غزوة مؤتة بكل المقاييس العسكرية معجزة من المعجزات، وكرامة من الكرامات، لقد وضعت معركة مؤتة القاعدة العسكرية الإسلامية في مواجهة العدو، فنحن لا نقاتل بعدد ولا عدة ولكن نقاتل بهذا الدين، فإذا تمحض قتالنا نصره لدين الله، وقمنا - ما استطعنا - بما أوجبه الله علينا من الأخذ بالأسباب الظاهرة، كان النصر حليفنا بإذن الله.

إن ما يتمتع به المسلم من حب البذل والتضحية بالنفس والمال في سبيل هذا الدين نابع من إيمانه بالله وبقينه بما عنده، فهل تُحيا في الأمة هذه البسالة، وهل نستخلص من غزوة مؤتة - خاصة - وتاريخ المسلمين الجهادي - عامة - دروسا تزرع التضحية والفداء في قلوب فتيانه حتى يعود للأمة سابق مجدها وغابر عزها.

معركة نهاوند (فتح الفتوح)

معركة نهاوند من المعارك الفاصلة في الفتح الإسلامي لفارس. وقعت في خلافة عمر بن الخطاب، سنة 21 هـ / 642 م وقيل سنة 18 أو 19 هـ قرب بلدة نهاوند في فارس، وانتصر فيها المسلمون انتصاراً كبيراً بقيادة النعمان ابن مقرن على الفرس الساسانيين، إلا أن النعمان قتل في المعركة. بانتصار المسلمين انتهى حكم الدولة الساسانية في إيران بعد أن دام حكمها 416 عاماً.

معركة نهاوند:

عن السائب بن الأقرع قال: زحف للمسلمين زحف لم ير مثله قط، رجف له أهل ماه وأصبهان وهمدان والري وقومس ونهاوند وأذربيجان، قال: فبلغ ذلك عمر فشاور المسلمين. فقال علي: أنت أفضلنا رأياً وأعلمنا بأهلك. فقال: لأستعملن على الناس رجلاً يكون لأول أسنة يلقاها،- أي أول من يتلقى الرماح بصدرة، كناية عن شجاعته- ياسائب اذهب بكتابي هذا إلى النعمان بن مقرن، فليسر بثلاثي أهل الكوفة، وليبعث إلى أهل البصرة، وأنت على ما أصابوا من غنيمة، فإن قُتل النعمان فحذيفة الأمير، فإن قُتل حذيفة فجرير بن عبد الله، فإن قُتل ذلك الجيش فلا أراك.

لما انتصر المسلمون في القادسية على الفرس كاتب يزدجرد أهل الباب والسند وحلوان ليجتمعوا فيوجهوا ضربة حاسمة للمسلمين، فتكاثبوا واجتمعوا في نهاوند.

وارسل سعد بن أبي وقاص إلى عمر: "بلغ الفرس خمسين ومائة ألف مقاتل، فإن جاؤونا قبل أن نبادرهم الشدة ازدادوا جرأة وقوة، وإن نحن عاجلناهم كان لنا ذلك".

وأرسل عمر إلى سعد محمد بن مسلمة ليخبره أن يستعد الناس لملاقاة الفرس، فغادر سعد الكوفة إلى المدينة ليخبر عمر بخطورة الموقف شفاهة، فجمع عمر المسلمين في المدينة، وخطب فيهم وشرح لهم خطورة الوضع، واستشارهم، وأشاروا عليه أن يقيم هو بالمدينة، وأن يكتب إلى أهل الكوفة فليخرج ثلثاهم لمساعدة الجيش الإسلامي وأهل البصرة بمن عندهم. ثم قال عمر: أشيروا عليّ برجل يكون أوليه ذلك الثغر غداً، فقالوا: أنت أفضل رأياً وأحسن مقدرة، فقال: أما والله لأولين أمرهم رجلاً ليكون أول الأسنة أي: أول من يقابل الرماح بوجهه- إذا لقيها غداً، فقيل: من يا أمير المؤمنين ؟ فقال: النعمان بن مقرن المزني، فقالوا: هو لها.

ودخل عمر المسجد ورأى النعمان يصلي، فلما قضى صلاته بادره عمر: لقد انتدبتك لعمل، فقال: إن يكن جباية للضرائب فلا، وإن يكن جهاداً في سبيل الله فنعم. وانطلق النعمان عام 21هـ يقود الجيش، وبرفقته بعض الصحابة الكرام.

وطرح الفرس حسك الحديد -مثل الشوك يكون من الحديد- حول مدينة نهاوند، فبعث النعمان عيوناً فساروا لا يعلمون بالحسك، فزجر بعضهم فرسه فدخلت في يده حسكة، فلم يبرح الفرس مكانه، فنزل صاحبه ونظر في يده فإذا في حافره حسكة، فعاد وأخبر النعمان بالخبر، فاستشار جيشه فقال: ماترون؟ فقالوا: انتقل من منزلك هذا حتى يروا أنك هارب منهم، فيخرجوا في طلبك، فانتقل النعمان من منزله ذلك، وكنست الأعاجم الحسك فخرجوا في طلبه، فرجع النعمان ومن معه عليهم، وقد عبأ الكتائب ونظم جيشه وعدده ثلاثون ألفاً، وجعل على مقدمة الجيش نعيم بن مقرن، وعلى المجنبتين: حذيفة بن اليمان وسويد بن مقرن، وعلى المجردة القعقاع بن عمرو، وعلى الساقة مجاشع بن مسعود، ونظم الفرس قواتهم تحت إمرة الفيرزان، وعلى مجنبتيه الزردق وبهمن جاذويه الذي ترك مكانه لذي الحجاب.

معارك إسلامية

أنشب النعمان القتال يوم الأربعاء، ودام على شكل مناوشات حادة إلى يوم الخميس، والحرب سجال بين الفريقين، وكان الفرس خلالها في خنادق.

وخشي المسلمون أن يطول الأمر فاستشار النعمان أصحابه، فتكلم قوم فردت آراؤهم، ثم تكلم طليحة فقال: أرى أن تبعث خيلاً مؤدبة، فيحددقوا بهم، ثم يرموا لينشبو القتال، ويحمشوهم - أي يفضبوهم - ، فإذا أحمشوهم واختلطوا بهم وأرادوا الخروج أرزوا أي انضموا -إلينا استطراداً- أي خديعة... وأقر الجميع هذا الرأي فأمر النعمان القعقاع أن ينشب القتال فأنشبه، فخرج الفرس من خنادقهم، فلما خرجوا نكص القعقاع بجنده، ثم نكص ثم نكص، وخرج الفرس جميعاً فلم يبق أحد إلا حرس الأبواب، حتى انضم القعقاع إلى الناس، والنعمان والمسلمون على تعبيتهم في يوم جمعة في صدر النهار، وأقبل الفرس على الناس يرمونهم حتى أفشوا فيه الجراحات، والمسلمون يطلبون من النعمان الإذن بالقتال، وبقي النعمان يطلب منهم الصبر.

فلما جاء الزوال وتفتيات الأفياء وهبت الرياح أمر بالقتال، كل ذلك إحياء لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان يختار هذا الوقت للقتال، وعندئذ ركب فرسه وبدأ يحرض المسلمين على القتال، ثم قال: فإن قتلت فلأمير بعدي حذيفة، وإن قتل فلان.. وعد سبعة.

وكبر النعمان التكبيرة الأولى ثم الثانية، ثم قال: اللهم اعزز دينك وانصر عبادك، واجعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك ونصر عبادك، اللهم إني أسألك أن تقر عيني اليوم بفتح يكون فيه عز للإسلام، أمنوا رحمكم الله. فبكى الناس.

وكبر النعمان التكبيرة الثالثة، وبدأ القتال، وأثناء تقدم القائد بدأ
الفرس يتركون الساحة وزلق بالقائد فرسه من كثرة الدماء في أرض المعركة،
فصرع بين سنانك الخيل، وجاءه سهم في جنبه، فرآه أخوه نعيم فسجاه بثوب،
وأخذ الراية قبل أن تقع وناولها حذيفة بن اليمان فأخذها، وقال المغيرة: اكنتموا
مصاب أميركم حتى ننتظر ما يصنع الله فينا وفيهم ؛ لئلا يهن الناس.

ولما زلق فرس النعمان به لمحّه معقل بن يسار فجاءه بقليل من الماء، فغسل
عن وجهه التراب، فقال النعمان: من أنت ؟ قال: أنا معقل بن يسار، قال: ما فعل
الناس ؟ قال: فتح الله عليهم، قال: الحمد لله، اكتبوا بذلك إلى عمر، وفاضت
روحه.

ولما أظلم الليل انهزم الفرس وهربوا دون قصد فوقعوا في واد، فكان
واحداهم يقع فيقع معه ستة، فمات في هذه المعركة مائة ألف أو يزيد، قتل
في الوادي فقط ثمانون ألفاً، وقتل ذو الحجاب، وهرب الفيرزان، وعلم بهريه
القعقاع فتبعه هو ونعيم بن مقرن فأدركاه في واد ضيق فيه قافلة كبيرة من بغال
وحمير محملة عسلاً ذاهبة إلى كسرى، فلم يجد طريقاً فنزل عن دابته وصعد
في الجبل ليختفي، فتبعه القعقاع راجلاً فقتله.

وحزن المسلمون على موت أميرهم وبأيعوا بعد المعركة أميرهم الجديد
حذيفة، ودخلوا نهاوند عام 21 هـ بعد أن فتحوها.

معركة ذات السلاسل

الخليفة أبو بكر وأرض العراق:

بعد أن انتهى الخليفة أبو بكر من القضاء على حركة الردة الشريرة التي نجمت بأرض العرب، قرر أن يتفرغ للمهمة الأكبر وهي نشر دين الله بعد أن مهد الجبهة الداخلية، وقضى على هذه الفتنة، وكان أبو بكر يفكر في الجبهة المقترحة لبداية الحملات الجهادية عملاً بقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة، 123). وكانت الدولة الإسلامية تقع بين فكي أقوى دولتين في العالم وقتها، دولة الفرس المجوسية من ناحية الشرق بأرض العراق وإيران، ودولة الروم الصليبية من ناحية الشمال بأرض الشام والجزيرة، وكان أبو بكر يفضل الجبهة الشامية على الجبهة العراقية، ولكنه فضل البدء بدولة الفرس لقوتها وشدة بأسها، وأيضاً لكفرها الأصلي، فهي أشد كفراً من دولة الروم الذين هم أهل كتاب، وأخيراً استقر رأى الخليفة على البدء بالجبهة العراقية.

بعد أن انتهى القائد الكبير خالد بن الوليد والمسلمين معه من حربه على المرتدين من بني حنيفة أتباع "مسيلمة الكذاب" جاءت الأوامر من الخليفة أبي بكر بالتوجه إلى الأراضي العراقية، مع عدم إكراه أحد من المسلمين على مواصلة السير معه إلى العراق، ومن أحب الرجوع بعد قتال المرتدين فليرجع، فانفض كثير من الجند، وعادوا إلى ديارهم، ليس خوفاً ولا فراراً من لقاء الفرس ولكن تعباً وإرهاقاً من حرب الردة، فلم يبق مع خالد سوى ألفين من المسلمين.

وما قام به أبو بكر هو عين الصواب والبصيرة الثاقبة فإنه لن ينصر دين الله إلا من كان عنده الدافع الذاتي، والرغبة التامة في ذلك، مع الاستعداد البدني والنفسي لذلك، فمن تعلق بشواغل الدنيا، أو كان خاطره وقلبه مع بيته وأهله لا يصمد أبداً في القتال، فكما أن هذا الجهاد جهاد طلب، وهو فرض كفاية فكما قال أهل العلم.

وضع الخليفة أبو بكر خطة عسكرية هجومية، تجلت فيها عبقرية الصديق الفذة، حيث أمر قائده خالد بن الوليد أن يهجم على العراق من ناحية الجنوب، وفي نفس الوقت أمر قائداً آخر لا يقل خبرة عن خالد بن الوليد وهو عياض بن غنم الفهري أن يهجم من ناحية الشمال، في شبه كماشة على العدو، ثم قال لهما: "من وصل منكما أولاً إلى الحيرة واحتلها فهو الأمير على كل الجيوش بالعراق، فأوجد بذلك نوعاً من التنافس الشريف والمشروع بين القائدين، يكون الرابع فيه هو الإسلام".

كانت أول مدينة قصدها خالد بن الوليد هي مدينة الأبله، وكانت ذات أهمية استراتيجية كبيرة، حيث أنها ميناء الفرس الوحيد على الخليج العربي، ومنها تأتي كل الإمدادات للحاميات الفارسية المنتشرة بالعراق، وكانت هذه المدينة تحت قيادة أمير فارسي كبير الرتبة اسمه هرمز، وقد اشتق من اسمه اسم المضيق القائم حالياً عند الخليج العربي، وكان رجلاً شريراً متكبراً، شديد البغض للإسلام والمسلمين، وللجنس العربي بأسره، وكان العرب بالعراق يكرهونه بشدة، ويضربون به الأمثال فيقولون: "أكفر من هرمز، أخبث من هرمز"، فلما وصل خالد بالجيوش الإسلامية هناك، وكان تعداد هذه الجيوش قد بلغ ثمانية عشر ألفاً بعد أن طلب الإمدادات من الخليفة، أرسل برسالة للقائد هرمز تبين حقيقة الجهاد الإسلامي، وفيها أصدق وصف لجند الإسلام، حيث جاء في الرسالة: "أما بعد فأسلم تسلم، أو اعتقد لنفسك ولقومك الذمة، وأقرر بالجزية، وإلا فلا تلومن إلا نفسك، فلقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة".

وهذا أصدق وصف لجند الإسلام، وهو الوصف الذي جعل أعداء الإسلام يهابون المسلمين، وهو النفحة الغالية التي خرجت من قلوب المسلمين، وحل محلها الوهن الذي قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سبب تكالب الأمم علينا، وهو كما عرفه الرسول صلى الله عليه وسلم (حب الدنيا وكراهية الموت).

هرمز يرفض الرسالة الإسلامية التي تدعوه إلى الإسلام أو الجزية، ويختار بيده مصيره المحتوم، ويرسل إلى كسرى يطلب الإمدادات، وبالفعل يرسل كسرى إمدادات كبيرة جداً، ويجتمع عند هرمز جيش جرار عظيم التسليح، ويبنى هرمز خطته على الهجوم على مدينة كاظمة ظناً منه أن المسلمين سوف يعسكرون هناك، ولكنه يصطدم أمام العقلية العسكرية الفذة للقائد خالد بن الوليد.

قام خالد بن الوليد بما يعرف في العلوم العسكرية الحديثة بحرب استنزاف، ومناورات مرهقة للجيش الفارسي، فقام خالد وجيشه بالتوجه إلى منطقة الحفير، وأقبل "هرمز" إلى "كاظمة" فوجدها خالية وأخبره الجواسيس أن المسلمين قد توجهوا إلى الحفير، فتوجه هرمز بسرعة كبيرة جداً إلى الحفير حتى يسبق المسلمين، وبالفعل وصل هناك قبل المسلمين، وقام بالاستعداد للقتال، وحفر خنادق، وعبأ جيشه، ولكن البطل "خالد" يقرر تغير مسار جيشه ويكر راجعاً إلى مدينة "الكاظمة"، ويعسكر هناك ويستريح الجند قبل القتال.

تصل الأخبار إلى هرمز فيستشيط غضباً، وتتوتر أعصابه جداً، ويتحرك بجيوشه المرهقة المتعبة إلى مدينة الكاظمة ليستعد للصدام مع المسلمين، وكان الفرس أدرى بطبيعة الأرض وجغرافية المكان من المسلمين، فاستطاع هرمز أن يسيطر على منابع الماء بأن جعل نهر الفرات وراء ظهره، حتى يمنع المسلمين منه، وصدق الحق عندما قال: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾. (البقرة، 216). فقد كان سبباً لاشتعال حمية المسلمين وحماستهم ضد الكفار، وقال خالد بن الوليد كلمته الشهيرة تحفيزاً بها الجند: "ألا انزلوا وخطوا رحالكم، فلمعمر الله ليصيرن الماء لأصبر الفريقين، وأكرم الجندين".

وقبل أن يصطدم هرمز قائد الجيوش الفارسية مع جيوش المسلمين أرسل بصورة الوضع إلى كسرى، الذي قام بدوره بإرسال إمدادات كبيرة يقودها قارن بن قرياس يكون دورها الحفاظ على مدينة الأبله في حالة هزيمة هرمز أمام المسلمين، لأهمية هذه المدينة كما أسلفنا.

سلاسل الموت:

كان هرمز رجلاً متكبراً أهوجاً، لا يستمع إلا لصوت نفسه فقط، حيث رفض الاستماع لنصائح قواده، وأصر على أن يربط الجنود الفرس أنفسهم بالسلاسل، حتى لا يفروا من أرض المعركة، كناية عن القتال حتى الموت، لذلك فقد سميت المعركة بذات السلاسل. والمسلمون أولى بهذا الصبر والثبات لأنهم على الحق والدين، وعدوهم على الباطل والكفر، وشتان بين الفريقين.

كان أول وقود المعركة وكما هو معتاد وقتها أيام الحروب أن يخرج القواد للمبارزة، كان أول الوقود عندما خرج القائد الفارسي هرمز لمبارزة القائد المسلم خالد بن الوليد، وكان "هرمز" كما أسلفنا شديد الكفر والخيانة، فاتفق مع مجموعة من فرسانه على أن يهجموا على خالد ويفتكوا به أثناء المبارزة، وبالفعل خرج المسلم للقاء الكافر، وبدأت المبارزة، ولم يعهد أو يعلم عن خالد بن الوليد أنه هزم قط في مبارزة طوال حياته قبل الإسلام وبعده، وقبل أن تقوم مجموعة الغدر بجريمتهم الشريرة فطن أحد أبطال المسلمين الكبار لذلك، وهو البطل المغوار القعقاع بن عمرو، صنو خالد في البطولة والشجاعة، فخرج من بين الصفوف مسرعاً، وانقض كالأسد الضاري على مجموعة الغدر فقتلهم جميعاً، وفي نفس الوقت أجهز خالد بن الوليد على الخائن هرمز وذبحه كالنعاج،

معركة إسلامية

وكان لذلك الأمر وقعاً شديداً في نفوس الفرس، حيث انضبط عقدهم، وانحل نظامهم لمقتل قائدهم، وولوا الأدبار، وركب المسلمون أكتافهم، وأخذوا بأقفيتهم، وقتلوا منهم أكثر من ثلاثين ألفاً، وغرق الكثير في نهر الفرات، وقتل المربطون بالسلاسل عن بكرة أبيهم، وكانت هزيمة مدوية على قوى الكفر وعباد النار، وفرباقي الجيش لا يلوى على شيء.

الفرع الكبير:

لم تنته فصول المعركة عند هذا الحد، فمدينة الأبله لم تفتح بعد، وهناك جيوش قوية ترابط بها للدفاع عنها حال هزيمة جيوش هرمز وقد كانت، ووصلت فلول المنهزمين من جيش هرمز وهى في حالة يرثى لها من هول الهزيمة، والقلوب فزعلة ووجللة، وانضمت هذه الفلول إلى جيش قارن بن قرياس المكلف بحماية مدينة الأبله، وأخبروه بصورة الأمر فامتأ قلبه هو الآخر فزعاً ورعباً من لقاء المسلمين، وأصر على الخروج من المدينة للقاء المسلمين خارجها، وذلك عند منطقة المذار، وإنما اختار تلك المنطقة تحديداً لأنها كانت على ضفاف نهر الفرات، وكان قد أعد أسطولاً من السفن استعداداً للهروب لو كانت الدائرة عليه، وكانت فلول المنهزمين من جيش هرمز ترى أفضلية البقاء داخل المدينة والتحصن بها، وذلك من شدة فزعهم من لقاء المسلمين في الميدان المفتوح.

كان القائد المحنك خالد بن الوليد يعتمد في حروبه دائماً على سلاح الاستطلاع الذي ينقل أخبار العدو أولاً بأول، وقد نقلت له استخباراته أن الفرس معسكرون بالمذار، فأرسل خالد للخليفة أبو بكر يعلمه بأنه سوف يتحرك للمذار لضرب المعسكرات الفارسية هناك ليفتح الطريق إلى الأبله، ثم انطلق خالد بأقصى سرعة للصدام مع الفرس، وأرسل بين يديه طليعة من خيرة الفرسان، يقودهم أسد العراق المثنى بن حارثة، وبالفعل وصل المسلمون بسرعة لا يتوقعها أحد من أعدائهم.

الفطنة العسكرية:

عندما وصل المسلمون إلى منطقة المذار أخذ القائد خالد بن الوليد يتفحص المعسكر، وأدرك بخبرته العسكرية، وفطنته الفذة أن الفرع يملأ قلوب الفرس، وذلك عندما رأى السفن راسية على ضفاف النهر، وعندها أمر خالد المسلمين بالصبر والثبات في القتال، والإقدام بلا رجوع، وكان جيش "الفرس" يقدر بثمانين ألفاً، وجيش المسلمين بثمانية عشر ألفاً، وميزان القوى المادي لصالح الفرس.

خرج قائد الفرس قارن وكان شجاعاً بطلاً، وطلب المبارزة من المسلمين فخرج له رجلان خالد بن الوليد وأعرابي من البادية، لا يعلمه أحد، اسمه معقل ابن الأعشى الملقب بأبيض الركبان لمبارزته، وسبق الأعرابي خالداً، وانقض كالصاعقة على قارن وقتله في الحال، وخرج بعده العديد من أبطال الفرس وقادته فبارز عاصم بن عمرو القائد الأنوشجان فقتله، وبارز الصحابي الجليل عدي بن حاتم القائد قباذ فقتله في الحال، وأصبح الجيش الفارسي بلا قيادة.

كان من الطبيعي أن ينفرط عقد الجيش الفارسي بعد مصرع قادته، ولكن قلوبهم كانت مشحونة بالحق والغيظ من المسلمين، فاستماتوا في القتال على حنق وحفيظة، وحاولوا بكل قوتهم صد الهجوم الإسلامي ولكنهم فشلوا في النهاية تحت وطأة الهجوم الكاسح، وانتصر المسلمون انتصاراً مبيناً، وفتحوا مدينة الأبله، وبذلك استقر الجنوب العراقي بأيدي المسلمين، وسيطروا على أهم مواني الفرس على الخليج، وكان هذا الانتصار فاتحة سلسلة طويلة من المعارك الطاحنة بين الفرس والمسلمين على أرض العراق كان النصر فيها حليفاً للمسلمين في جملتها، وانتهت بسقوط مملكة عباد النار.

معركة البويب

(بداية فتح العراق)

ان معركة الجسر كانت المعركة الوحيدة التي خسرها المسلمون في حربهم مع الفرس حتى سقوط الدولة الساسانية وأحدثت خللاً مؤقتاً في صفوف الجيش الإسلامي، إذ أن قسماً منه عاد إلى المدينة وأخر توغل في الصحراء خجلاً من تراجعهم في معركة الجسر وبقي مع المثنى بن حارثة الشيباني ما يقارب ثلث الجيش.

أراد الفرس إدامة اندفاعهم خلف المسلمين على أمل إكمال القضاء على الجيش الإسلامي بزعمهم، ومما يشير الدهشة والعجب انه بالرغم من كل ما حدث لم يتمكن الفرس من الحصول على أسير واحد من المسلمين ولم يستأسر منهم أحد قط إبقاء على حياته.

اندفع الفرس خلف المسلمين بقيادة كل من جابان ومردنشاہ لقطع الطريق على المسلمين للقضاء عليهم، اذ قدرا ان المسلمين في حالة هروب وتراجع، فلما علم المثنى بهما خرج في ثلة من المسلمين فظننا انه هارب فاعترضاه فاخذهما أسيرين وقتلهما بعد أن قال لهما انتما غررتما اميرنا وكذبتماه واستفزتماه، وكان اهل اليس قد تواطؤوا مع المثنى عليهم وعقد لهم بها ذمة.

وأمر آخر ما حدث في المدائن من فرقة بين الفرس واختلافهم على الزعامة فيها فما كان من بهمن جاذويه بعد أن آتاه الخبر بذلك إلا أن يعود فجأة إلى المدائن ليشارك في إدارة الصراع وهو المزهو بما حققه في معركة الجسر.

معركة البويب:

كانت معركة البويب متميزة بمعركتي الجسر والقادسية إذ أنها أحدثت توازناً بين المسلمين والفرس بل أكدت الهيبة عند الفرس من المسلمين فقد قال كل من الخيزران ورستم ليوران ابنة كسرى عندما قالت لهما: "ما بال أهل فارس لا يخرجون إلى العرب كما كانوا يخرجون قبل اليوم؟ وما لكما لا تبعثان كما كانت الملوك تبعث قبل اليوم؟" قالوا: ان الهيبة كانت مع عدونا يومئذ وانها فينا اليوم".

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد أرسل مدداً إلى المثنى بن حارثة فاجتمع المسلمون عند البويب قرب الكوفة على نهر الفرات وكان في الجانب الثاني من النهر الفرس بقيادة مهران الهمداني، وكاتب مهران المثنى قائلاً: إما أن تعبروا إلينا أو نعبر إليكم، فقال المثنى: اعبروا مسترجعاً ما حدث لأبي عبيد رحمه الله عند الجسر، فعبر مهران.

وكان المدد الذي أرسله عمر رضي الله عنه بقيادة جرير بن عبد الله وآخر بقيادة عصمة بن عبد الله الضبي ومن التحق بهم من أهل الردة.

وشارك في المعركة نصارى من النمر وأميرهم أنس بن هلال النمري ونصاري من بني تغلب وعليهم عبد الله بن كليب بن خالد وقد قالوا حين رأوا نزول العرب بالعجم نقاتل مع قومنا، وكانت نتيجة المعركة هزيمة الفرس وقتل الآلاف منهم وقتل قائدهم مهران.

وقد قتل في المعركة مسعود بن حارثة الشيباني أخو المثنى بن حارثة وقد هون المثنى على المسلمين استشهاده أخيه بقوله: "يا معشر المسلمين لا يرعكم مصرع أخي فإن مصارع خياركم هكذا"، بل ان أخاه مسعود هون أمر مصرعه على قومه بقوله حين أصيب: "يا معشر بكر بن وائل ارفعوا راياتكم يرفعكم الله لا يهولنكم مصرعي".

معركة إلامية

وقد قال لقومه قبل اصابته وكأنه ينتظر الشهادة: "ان رأيتمونا أصبنا فلا تدعوا ما انتم فيه الزموا مصافكم واغتنموا غناء من يليكم".

وقد قاد المثنى المعركة بحكمة وشجاعة، والمعركة كانت في رمضان فطلب من جيشه الإفطار ليتقوا على القتال بقوله: "انكم صوام والصوم مرقعة ومضعفة، واني أرى من الراي أن تفطروا ثم تقووا بالطعام على قتال عدوكم قالوا نعم فافطروا".

وكان لمعركة البويب أثر كبير في حماس واندفاع من فر في معركة الجسر وقد وجه المثنى ذلك لمصلحة المعركة فعندما رأى رجلاً يتهياً ويتقدم من الصف فقال: ما بال هذا يستقتل؟ قالوا: هو ممن فر يوم الجسر فمنعه من الاندفاع وأمره بأن يلزم صفه، فاستقر ولزم الصف، ولكن عندما فر الفرس وأراد المثنى اللحاق بهم قال: أين المستبسل بالأمس وأصحابه انتدبوا في آثار هؤلاء القوم إلى السيب وأبلغوا من عدوكم ما تغيظونهم فهو خير لكم واعظم أجراً. واستغفروا الله ان الله غفور رحيم.

وكان أول من انتدب يومئذ للمثنى واتبع آثارهم المستبسل وأصحابه وقد كان أراد الخروج بالأمس إلى العدو من صف المسلمين واستوفز واستنشل فأمر المثنى أن يعقد لهم الجسر ثم أخرجهم في آثار القوم .. ولم يبق في العسكر جريء إلا خرج في الخيل، فأصابوا في البقر والسبي وسائر الغنائم شيئاً كثيراً فقسمه المثنى عليهم.

وقد قيل شعراً في البويب من ذلك:

وقد أرانا بها والشمل مجتمَع	إذ بالنخيلة قتلى جند مهرانا
ازمان سار المثنى بالخيول لهم	فقتل الزحف من فرس وجيلانا
سما لمهران والجيش الذي معه	حتى ابادوهم مثنى ووحدانا

وكانت وقعة البويب في رمضان سنة ثلاث عشرة قتل الله عد والله مهران وجيشه واخصموا أجنبتي البويب عظاماً.

وبعد الانتهاء من المعركة جلس المثنى للناس يحدثهم ويحدثونه ونلمس من حديثهم علو الهمة وعمق الثقة بالنفس بفضل الله، قال أحدهما قتلت رجلاً فوجدت منه رائحة المسك فقلت: مهران ورجوت أن يكون إياه فإذا هو صاحب الخيل شهريراز، فوالله ما رأيته إن لم يكن مهران شيئاً، فقال المثنى: قد قاتلت العرب والعجم في الجاهلية والإسلام، والله لمائة من العجم في الجاهلية كانوا أشد عليّ من ألف من العرب، ولمائة اليوم من العرب أشد عليّ من ألف من العجم إن الله اذهب مصدوقتهم ووهن كيدهم فلا يروعنكم زهاء كثرة تروونه ولا سواد ولا قسي فج ولا نبال طوال فإنهم إن اعجلوا عنها وفقدوها، كالبهائم أينما وجهتموها اتجهت وقال آخر: حزنا كتيبة منهم إلى الفرات ورجوت أن يكون الله قد أذن في غرقهم وسلى عنا بها مصيبة الجسر. فقاتلناهم قتالاً شديداً وحملت بها على حاميتهم فقتلته فولوا نحو الفرات فما بلغه منهم أحد فيه الروح، وغير ذلك كثير.

وقد اعترف المثنى بخطأ ارتكبه وهو قطعه الجسر على الفرس داعياً جنده ألا يقتدوا به مع العلم أن الفرس لم يغيروا من واقع المعركة شيئاً، فقد جاء: "وذلك أن المثنى بأدرهم عند الهزيمة الجسر فأخذه عليهم فأخذوا يمناً ويسرة وتبعهم المسلمون إلى الليل ومن الغد إلى الليل وندم المثنى على أخذه الجسر وقال: لقد عجزت عجرة وقى الله شرها بمسابقتي إياهم إلى الجسر وقطعه، حتى اخرجتهم، فإني غير عائد، فلا تعودوا ولا تقتدوا بي أيها الناس، فإنها كانت مني زلة فلا ينبغي إحراج أحد إلا من لا يقوى على امتناع".

معركة البويب

وقد كان معركة البويب انعكاساتها على كل من المسلمين والفرس فالمسلمون أصبحوا سادة المنطقة وانفتحت أبواب العراق من جنوبيه إلى شماله تجوئيه خيولهم كيف شاءت، وقد تحرك المثنى بعد معركة البويب، جاء: "ثم خلف المثنى بالحيرة بشير بن الخصاصية، وسار يمحّر السواد ونزل أليس، قرية من قرى الأنبار وإغار على الخنافس وهي سوق يجتمع بها تجار مدائن كسرى ثم رجع فأتى الأنبار فتحصن أهلها منه، فلما عرفوه نزلوا إليه واتوه بالأعلاف والزاد وسار منها إلى بغداد وأرسل قوة إلى صفين وسار إلى تكريت، ثم عاد إلى الأنبار"، هذا بعض ما أحدثته معركة البويب في الجانب الإسلامي أما في الجانب الفارسي فقد اهتز المجتمع الفارسي وخاصة في المدائن مركز القرار السياسي والعسكري جاء: "لما رأى أهل فارس ما يفعل المسلمون بالسواد قالوا لرستم والخيزران وهما على أهل فارس: لم يبرح بكما الاختلاف حتى وهنتما أهل فارس وأطمعتما فيهم عدوهم ولم يبلغ من أمركما أن نقركما على هذا الرأي وإن تفرضاها للهلكة ما بعد بغداد، وساباط وتكرت إلا المدائن، والله لتجتمعان أو لنبدأن بكما قبل أن يشمت بنا شامت ثم نهلك وقد اشتفينا منكما، فقال الخيزران ورستم لبوران ابنة كسرى وكانت قد تولت ملك الفرس لعدم معرفتهم بوجود ذكر من آل كسرى اكتبني لنا نساء كسرى وسراريه ونساء آل كسرى وسراريهم ففعلت فعلموا بوجود غلام يدعى يزدجر بن شهریار بن كسرى كانت أمه قد أخفته عند أخواله خوفاً عليه من أن يقتله شيري كما قتل أخوته، فاجتمعت كلمة الفرس على توليته، وأخذوا يمهّدون جيشاً ضخماً لاستعادة العراق فما كان من المثنى إلا الانسحاب ثانية، والاقامة بندي قار مع جيشه منتظراً الامدادات من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

هكذا كان الموقف بعد معركة البويب؛ الفرس يتأهبون لهجوم مضاد على المسلمين والمسلمون ينتظرون قدوم الامدادات من أمير المؤمنين عمر، فكانت معركة القادسية أتت على آخر أمل للفرس باستعادة العراق.

معركة الجسر

طلب المثنى المدد من أبي بكر الصديق فلما أبطل عليه أبو بكر سار المثنى إلى أبي بكر ليخبره خبر الفرس والمسلمين ويستأذنه في الاستعانة بمن حسنت تويته من المرتدين فوجده مريضاً وآلت الخلافة بعده إلى عمر بن الخطاب وكان أبو بكر قد أوصاه بأن ينتدب الناس مع المثنى ففعل وجهز حملة من المدينة بقيادة أبي عبيد بن مسعود الثقفي بعد أيام من توليه الخلافة سنة 13 هـ.

قاد أبو عبيد الحملة إلى العراق بأمر الخليفة عمر بن الخطاب والتحق به متطوعون خاض بهم المعركة حتى استشهاده في معركة الجسر وأهمها:

معركة النمارق سنة 13 هـ:

تولى رستم أهل فارس بعد موت شهريراز فجهز جيشاً كبيراً بقيادة جابان وكان المثنى قد سبق أبا عبيد في القدوم إلى الحيرة فلما علم بذلك الحشد الكبير للفرس تجنب المواجهة معهم بانتظار مقدم أبي عبيد وكانت معركة النمارق أول معركة خاضها أبو عبيد بعد وصوله وتوليته قيادة الجيوش في العراق، وكانما أرادها رستم أن تكون صدمة للمسلمين توقف تقدمهم ويقهر في نفوسهم إرادة الظفر ورغبة النصر ولكن الله هزم أهل فارس وأسر جابان.

معركة السقاطية سنة 13 هـ:

تجمع المنهزمون من معركة النمارق في كسكر وكان بها نرسي ابن خالة الملك، قال ابن الأثير: "فعاجلهم أبو عبيد فالتقوا أسفل كسكر بمكان يُقال له السقاطية فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثم انهزمت فارس وهرب نرسي وغلب المسلمون على عسكره وأرضه وجمعوا الغنائم".

وقعة الجالينوس سنة 13 هـ

كان رستم قد بعث الجالينوس لمؤازرة نرسي لكن أبا عبيد سبقه إلى نرسي وهزمه في السقراطية فانفرد به أبو عبيد وهزمه، ولما بعث رستم الجالينوس أمره أن يبدأ بنرسي ثم يقاتل أبا عبيد، إلا أن هزيمة نرسي أمام أبي عبيد جعل الجالينوس يواجه أبا عبيد بمفرده كذلك فهزمه أبو عبيد وهرب الجالينوس وغلب أبو عبيد على تلك البلاد ثم ارتحل إلى الحيرة.

هذه أشهر عمليات أبو عبيد في العراق قبل معركة الجسر وقد دخل الكثير من الفرس ومن الأهم من العرب في صلح مع أبي عبيد كما دخلوا قبله مع خالد بن الوليد طلباً للسلامة والأمان.

معركة الجسر سنة 13 هـ

هي المعركة الوحيدة التي خسرها المسلمون أمام الفرس في العراق إذ أنهم لم يخسروا معركة قبلها ولم يخسروا معركة بعدها حتى تحرير العراق وضمه إلى الدولة العربية الإسلامية.

كان الجيش الذي غادر المدينة مع أبي عبيدة إلى العراق ألف رجل وأصبح قبل موقعة الجسر نحو عشرة آلاف وهم الذين خرجوا معه من المدينة المنورة ومن لحق به من المسلمين عند مروره بهم وخاصة ممن ارتد ثم عاد وحسن إسلامه وكان هؤلاء من أشد الناس رغبة في الجهاد تكفيراً عن ردتهم وتعويضاً عما فاتهم من الجهاد في انطلاقة الفتح الأولى بعد الانتهاء من حروب الردة.

وكانت الفارسية كبيرة مقارنة بالجيش الإسلامي إذ أن رستم أراد أن ينتصر في معركة مع المسلمين ليعيد شيئاً من الهيبة لدولته ويعيد لجيشه روحه المعنوية وذلك بعد هزائمهم السابقة مع المسلمين، ذكر ابن خياط في تاريخه:

"قالوا ولما رجع المرازية منهزمين شتمهم وأقصاهم ودعا بهمن ذا الحاجب وأعطاه كثيراً، وحمل معه آلة الحرب أوقاراً ودفع إليه الفيل الأبيض"، وقد طلب سليط بن قيس من أبي عبيد أن يدع الفرس يعبروا وذلك لكثرة الفرس والضيق المكان إن هم عبروا قائلاً: "إن العرب لم تلق مثل جمع فارس قط، فجعل لهم ملجأ ومرجعاً من هزيمة إن كانت، فرد عليه أبو عبيد قائلاً: والله لا فعلت جنت يا سليط، فقال سليط: والله ما جنت وأنا أجرا منك نفساً وقبيلاً، ولكن أشرت بالرأي".

وقد أطلق عدة أسماء على المعركة، منها: قص الناطف وهو اسم شاطئ الفرات الشرقي الذي حدثت فيه المعركة، والمروحة، وهو اسم شاطئ الفرات الغربي الذي حدثت فيه المعركة، وكذلك القرقرس ولكن أشهر اسم لها هو معركة الجسر لوجود جسر يربط ضفتي نهر الفرات الشرقية والغربية.

وكانت أرض المعركة منبسطة لا توجد فيها عوائق طبيعية سوى نهر الفرات وفرعيه الرئيسيين اللذين دارت بينهما المعركة قرب الكوفة.

وكان لعبور أبي عبيد أثر كبير في نهاية المعركة على هذا الشكل المفجع، وقد تنبه سليط ومن معه إلى ذلك لكن أبا عبيد رحمه الله قد استبد برأيه، وكان لضيق المكان بعد العبور العقبة الأولى التي واجهها المسلمون وانحصارهم بين فرعي نهر الفرات مما أفقدهم سهولة الحركة وحرية المناورة التي تستطلبها أية معركة، ومن ثم واجهوا وإبلاً من سهام العدو الموجه وهم بعيدين عن المواجهة المباشرة، وكذلك واجه المسلمون الفيلة التي نفرت منها خيل المسلمين مما أدى إلى تحجيم حركة قوة الفرسان.

معركة إسلامية

وقد تصدى المسلمون للفيلة فتمكنوا من معظم الفيلة وأنزلوا عنها أهلها إلا أن الفيل الأبيض الذي تصدى له أبو عبيد خبط أبا عبيد وقام عليه، فما بصر الناس بأبي عبيد تحت الفيل خشعت أنفس بعضهم.

وكان أبو عبيد قد عهد بالقيادة بعده لسبعة من ذويه فهم ابنه جبر وأخيه الحكم وقد قاتلوا بشجاعة مع المسلمين حتى استشهد السبعة مع الكثير من المسلمين وتولى القيادة بعدهم المثنى بن حارثة الشيباني والمسلمين في تراجع لا يرون أمامهم إلا الجسر للعبور إلى الجانب الآخر لكن عبد الله بن مرشد الثقفي قطع الجسر وقال: "أيها الناس موتوا على ما مات عليه أمراؤكم أو تظفروا" فتعاظمت الكارثة بإلغاء الكثير من المسلمين أنفسهم في النهر ففرق منهم الكثير ممن لا يحسن السباحة، فأعاد المثنى ربط الجسر ووقف مع نخبة من الفرسان لمنع الفرس من الوصول إلى الجسر ولكي يتمكن المسلمون من العبور بسلام.

وظهرت بطولات الرجال في خضم هذه المعركة في نتائجها وخاصة فمنهم من استشهد ومنهم من واصل الجهاد وكان آخر شهيد عند الجسر الصحابي الجليل سليط بن قيس رضي الله عنه أما المثنى بن حارثة فقد جرح في معركة الجسر واستشهد بسبب ذلك الجرح.

نتائج المعركة:

كادت أن تنهي المعركة بنصر حاسم للمسلمين لولا الخلل الذي أصاب المسلمين بعد استشهاد أبي عبيد فقد قتل من الفرس ستة آلاف بينما الشهداء من المسلمين أربعة آلاف في معظم الروايات وذكر أقل من ذلك ولعل الاختلاف جاء من ذكر بعضهم لقتلى المعركة فقط من دون غرف في نهر.

وقد ذكر الذهبي الاختلاف في ما ورد في عدد من قتل يوم الجسر من المسلمين بقوله: "واستشهد يومئذ فيما قال خليفة ألف وثمانمائة وقال سيف: أربعة آلاف ما بين قتل وغريق".

ولقد حاول الفرس انتهاز حالة الفوضى التي دبت في صفوف المسلمين في نهاية المعركة للملاحقة المسلمين حتى بعد عبورهم الجسر ولكن الذي حال بينهم وبين ذلك تصدي المثنى ومن معه لهم ومنعهم من الاقتراب من الجسر وكذلك ورود أخبار التمرد الفارسي على رستم في المدائن، وفي المدينة المنورة فقد كان وقع الخبر على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أليماً وكان يخفف من جزع الذين فروا يوم الجسر بقوله: "لا تجزعوا يا معشر المسلمين، أنا فئتكم إنما أنخرتكم إلي"، وإما في جبهات القتال فقد كان طلب الثأر الشهداء الجسر دافعاً إضافياً بعد الجهاد في سبيل الله، فقد قتل القعقاع بن عمرو بهمن جازويه قائد الفرس في الجسر وهو يصرخ بالثارات أبي عبيد وسليط وأصحابهم يوم الجسر، وفي مواجهة بين المسلمين بقيادة جرير بن عبد الله البجلي والفرس طلب الفرس عبور النهر قائلاً لمن طلب منه عبور نهر دجلة، ليس ذلك بالرأي وقد حض لكم في ذلك عبرة بمن قتل من إخوانكم يوم الجسر، وأما الفرس فبعد عجز بهمن بن جازويه النيل من المسلمين بعد عبورهم الجسر عاد إلى المدائن بنصر يضر به لأنه أول نصر للفرس على المسلمين ولكنه كان آخر نصر لهم حتى نهاية معاركهم مع المسلمين.

معركة عين التمر (أروع هزيمة في التاريخ)

المكان: عين التمر - شمال غرب الحيرة - العراق.

الموضوع: جيوش الإسلام بقيادة خالد بن الوليد تقضي على الحاميات الفارسية بالعراق.

الأحداث والدروس المستنبطة:

بعد أن فتح الله تعالى معظم بلاد العراق للمسلمين، وذلك في أربعين يوماً فقط، وبعد أن فتحت "الحيرة" عاصمة الفرس العربية، وأهم مدينة بالعراق بعد "المدائن"، جاء الأمر من الخليفة أبو بكر الصديق لخالد بن الوليد أن يتوجه سريعاً لإنقاذ المسلمين المحاصرين في منطقة "دومة الجندل"، وكنا قد عرضنا من قبل في أثناء سردنا لبداية الحملة الجهادية لفتح العراق أن الخليفة أبا بكر قد كلف كلاً من خالد بن الوليد من ناحية الجنوب، وعيا بن غنم من ناحية الشمال، ليوجد بذلك حالة من التنافس بينهما، حيث جعل من يصل أولاً هو القائد العام، فتقدم خالد، وتعرض عياض ومن معه، وحوصروا في منطقة دومة الجندل، حاصرتهم أعداد ضخمة من القبائل العربية الموالية للفرس، وكان القائد خالد بن الوليد تواقاً لأن يهجم على المدائن عاصمة الفرس، لينهي الوجود الفارسي تماماً في العراق، ولكنه امتثل لأوامر قائده العام الخليفة أبي بكر.

خطر الحاميات الفارسية:

كان القائد الحربي خالد بن الوليد من الطراز النادر في إدارة العمليات الحربية، بل ربما هو نسيج وحده، فقد رأى قبل التوجه لإنقاذ المسلمين المحاصرين بدومة الجندل ضرورة تأمين وضع المسلمين في المدن المفتوحة، خاصة في ظل وجود حاميات فارسية قوية في المناطق المحيطة بمدينة الحيرة أهم مدن العراق، وعاصمة

الفرس العربية، والتي كان لسقوطها في أيدي المسلمين دويّ كبير في أركان البيت الفارسي، وكانت هذه الحاميات تتركز في منطقتين هما: منطقتا الأنبار وعين التمر، وبالفعل قرر خالد الهجوم على تلك الحاميات، وإزالة التهديد الفارسي للوجود الإسلامي بالحيرة.

لم يكن خالد من القواد الذين ينتظرون المفاجآت، بل كان يعمل دائماً على بث عيونه واستخباراته قبل خوض أية معركة، وقد نقل له سلاح الاستطلاع أوضاع المدينة من حيث موقعها، وموقفها التحصيني، وكانت هذه المدينة شديدة التحصين مما يجعل مسألة السيطرة عليها أمراً صعباً، وذلك لعدة أسباب منها: موقع هذه المدينة على الشاطئ الشرقي لنهر الفرات، مما يجعل بين المسلمين

والفرس حاجزاً مائياً يهابه المسلمون، ومنها وجود أسوار منيعة حول المدينة، هذا غير وجود خندق عميق متسع يحيط بالمدينة من كل ناحية، ولكن كل ذلك لم يفت في عضد المسلمين وخطتهم الجهادية، وكان معظم أهل المدينة من النصاري، وعليهم قائد فارسي اسمه شيرازاد، وقد جعل "خالد بن الوليد" قائداً على هذه المعركة، وهو الصحابي الأقرع بن حابس، رغم أنه ليس من السابقين في الإسلام، ولكنه صاحب كفاءة حربية ممتازة.

ذات العيون:

بدأ المسلمون زحفهم على المدينة الحصينة، فبدعوا أولاً باجتياز نهر الفرات على الرغم من فيضان مائه في ذلك الوقت، وعلى الضفة الأخرى كان العرب مستولياً على أهل المدينة، فلم يجزؤ أحد على الخروج من المدينة لصد العبور الإسلامي، وذلك للسمعة الكبيرة للمسلمين وفتوحاتهم السريعة والهائلة في أيام معدودات، والتي جعلت الجميع مكتوفي الأيدي، وبعد أن عبر المسلمون ظهرت أولى محاولات المقاومة عندما قامت مجموعة من أهل المدينة بارتقاء أسوارها، ورشق المسلمين بالسهام، وكان هذا الرمي وبالاً عليهم، إذ اكتشف القائد الفذ خالد بن الوليد أن هؤلاء المقاتلين سذج لا يعرفون شيئاً من فنون القتال والرمي، ولا خبرة لهم بالحرب.

معارك إسلامية

أمر خالد بن الوليد كتيبة خاصة في الجيش الإسلامي مكونة من أمهر رماة العرب برمي المحاربين رمياً واحداً كثيفاً، ويركزون على عيون المحاربين، وبالفعل انطلقت تلك السهام كالطير الأبابل، وأصابته هدفها بدقة بالغة، وفقدت قرابة الألف عين، فصاح أهل المدينة جميعاً: "ذهبت عيون أهل الأنبار"، وسمي هذا اليوم بذات العيون، وصاحوا وماجوا، وعمتهم الفوضى وخرج شيرازاد يسأل عن الخبر، فلما علم أسرع لعقد صلح مع المسلمين، ولكنه اشترط شروطاً لا يقرها الإسلام في الحرب، فلم يوافق خالد عليها.

جسر الجمال:

كان الخندق المائي يمثل مشكلة حقيقية للمسلمين؛ لأنه عميق ومتسع، ويحيط بالمدينة من كل مكان، ولكن ذلك لم يكن ليمنع الأسد الضاري خالد صاحب العقلية العسكرية الفذة، حيث قام بالدوران حول سور المدينة لدراسة هذا الخندق جيداً، حتى وقف عند نقطة معينة من الخندق وتأملها طويلاً، ثم تفتق ذهنه عن فكرة عبقرية، حيث وقف على أضيق نقطة في الخندق، وأمر بذبج كل الجمال الهزيلة والمريضة، وإلقائها عند هذه النقطة، فردم تلك النقطة بصنع جسر من الجمال، واستطاع المسلمون أن يعبروا بسهولة، وأصبح الجيش المسلم محيطة بأسوار المدينة من كل مكان استعداداً لاقتحامها، فأسرع شيرازاد وطلب الصلح من خالد بشروط الإسلام، على أن يخرج شيرازاد سالماً بأهله وماله إلى مكان آمن، فوفى له خالد ذلك الشرط، وأبلغه مأمنه، ودخل المسلمون المدينة وأمن الناس على معاشهم.

عندما عاد شيرازاد إلى قائد الفرس العام على العراق بهمن جانويه مهزوماً من الأنبار لأمه بهمن بشدة على مصالحة المسلمين، والتفريط في هذه المدينة الحصينة رغم ضخامة قواته، وكان شيرازاد رجلاً عاقلاً فقال: "إن هؤلاء القوم- يعني أهل الأنبار- قد قضوا على أنفسهم بالهزيمة عندما رأوا جيش المسلمين، وإذا قضى قوم لأنفسهم بالهزيمة كاد هذا القضاء أن يلزمهم"، ففهم بهمن كلامه واقتنع به.

كانت الحامية الأخرى متمركزة في مدينة عين التمر، وكانت على طريق دومة الجندل تراقب الأوضاع عن كثب، وكانت الحامية الموجودة بعين التمر مكونة من قوتين كبيرتين: قوة فارسية بقيادة مهران بن بهرام، وقوة عربية نصرانية مكونة من خليط من قبائل تغلب وإياد بقيادة عقة بن أبي عقة، وكان أحماً مغروراً، دفع ثمن هذا الحمق والغرور غالياً، حيث طلب هذا الصليبي الحاقد المغرور عقة من القائد الفارسي مهران أن يخلي الساحة؛ ليقا تل هو المسلمين وحده دون مساعدة من الفرس، وقال له: "إن العرب أعلم بقتال العرب، فدعنا وخالداً".

ولنا أن نفهم النفسية المريضة التي دفعت عقة لهذا الطلب الغريب، فالغرور والحقد والرغبة في الفخر والزهو، وتحقيق الأمجاد بالانتصار على المسلمين، وقائدهم خالد بن الوليد صاحب الراية الميمونة، والانتصارات الباهرة، كل ذلك دفع عقة لهذا الطلب، بل تمادى في غيه وغروره، وقرر الخروج لقتال المسلمين خارج المدينة، في الصحراء المفتوحة، كأنه بذلك يسعى لحتفه بقدميه كما يقولون؛ لأن الصحراء المفتوحة هي أصلاً ميدان المسلمين المفضل في القتال، وعندما سمع مهران هذا الكلام من عقة قال له: "صدقت لعمري لأنتم أعلم بقتال العرب، وإنكم مثلنا في قتال العجم، دونكموهم، وإن احتجتم إلينا أعناكم"، وكان مهران قد بيت في نفسه أمراً، وهو الانسحاب من أمام المسلمين لعلمه أنهم لا يقهرون، وقد انتقد قادة الفرس ذلك الأمر من "مهران" وقالوا له: "ما حملك على أن تقول هذا القول لهذا الكلب" يعنون عقة، فقال لهم مهران: "دعوني، فإني لم أرد إلا ما هو خير لكم وشر لهم، إنه قد جاءكم من قتل ملوكم، وفل حدكم، فاتقيته بهم، فإن كانت لهم على خالد فهي لكم، وإن كانت الأخرى لم تبلغوا منهم حتى يهنوا، فنقاتلهم ونحن أقوىاء وهم ضعفاء".

أسرع هزيمة في التاريخ:

خرج عقة المفرور ومن معه من العرب المنتصرة من المدينة للصدام مع المسلمين، وأوغل في الصحراء غروراً منه لمبادرة المسلمين بالهجوم، ووصل إلى منطقة الكرخ وعبا قواته النصرانية، ووصل المسلمون إلى أرض المعركة وعبا خالد الجيش بسرعة، واستعد للقتال، ولم يكن "خالد" قد رأى عقة من قبل، ونظر إليه نظرة الفاحص الخبير بنفوس المحاربين، فعلم أن هذا الرجل شديد الغرور.. فقرر القيام بحيلة بارعة شجاعة، جريئة في نفس الوقت، وهي خطف القائد عقة نفسه في عملية فدائية أشبه ما تكون بعمليات الصاعقة، فانتخب مجموعة خاصة من أبطال المسلمين، وأطلعهم على الفكرة الجريئة، فوافق عليها الجميع، فاكل أبطال، والجميع خالد، وبالفعل انقض "خالد" ومجموعته الفدائية على صفوف العدو - وهم يقدرّون بعشرات الآلاف - كما ينقض الأسد على فريسته، وكان عقة مشغولاً بتسوية الصفوف، واندesh العدو من هذه المجموعة الصغيرة التي تهجم على عشرات الآلاف، ولم يفيقوا من هول الصدمة إلا و"خالد" قد أسر عقة وحمله بين يديه كالطفل الصغير وعاد به إلى صفوف المسلمين، وعندها تجمدت الدماء في عروق العرب المنتصرة، وركبهم الفزع الشديد، ففروا من أرض المعركة دون أن يسلوا سيفاً واحداً في أسرع هزيمة في التاريخ.

واصل المسلمون سيرهم بعد هذه الضربة الخاطفة حتى وصلوا إلى أسوار المدينة، وكان مهران وحاميته الفارسية قد عرفوا بما حل للمفرور عقة ومن معه، ففروا هاربين تاركين أعوانهم النصاري لمصيرهم المحتوم، عندها أسقط في يد النصاري في المدينة فأرسلوا لطلب الصلح مع خالد، ولكن خالد علم أن هؤلاء الذين يطلبون الصلح هم المحاربون الذين انهزموا في أرض المعركة وهم بالتالي لا يستحقون الأمان والصلح، وإنما أجبرهم على ذلك قرب أجلهم، ودنوا هزيمتهم.. فرفض خالد الصلح معهم، إذ لا أمان مع هؤلاء الخونة الكفرة، الذين باعوا أنفسهم للمشركين الأصليين عباد النار، وقاتلي بني جلدتهم وأهل كتاب مثلهم، لا شيء إلا بدافع الحقد والحسد، أصر خالد على عدم الصلح حتى ينزلوا على

حكمه، وهذا معناه في عرف الحروب أن يكون "خالد" مخيراً في فعل أي شيء معهم: يقتلهم، يسبيهم، يعفو عنهم، المهم أنهم تحت حكمه وأمره، فلما يئس المتنصرة من نجدة الفرس لهم نزلوا على حكم خالد بن الوليد، فألقى القبض على جميع من يقدر على حمل السلاح ثم حكم في الحال بإعدام المحاربين، وبدأ بزعيمهم الأحمق عقة وسبى الذرية والأموال.

وقد وجد المسلمون بمدينة عين التمر كنيسة يتعلم فيها أربعون صبياً الإنجيل، فلم يتعرض لهم خالد بالقتل، بل اعتبرهم من جملة السبي، وذلك من عدل الإسلام، فلم يأخذ هؤلاء بجريرة بني جلدتهم المقاتلين، وكان من بينهم شاب اسمه نصير هو أبو الفاتح الكبير موسى بن نصير فاتح الأندلس، وأيضاً سيرين أبو عالم زمانه، ومفتى الأمة في عصره محمد بن سيرين.

معركة النمارق

المكان: منطقة النمارق . الحيرة . العراق

الموضوع: المسلمون بقيادة أبي عبيد الثقفي يقضون على جيوش فارس الجرارة.

الأحداث والدروس المستنبطة:

عندما أصدر الخليفة أبو بكر أوامره لخالد بن الوليد القائد العام على الجبهة العراقية بالتحرك لإنقاذ المسلمين بالجبهة الشامية لوصول جحافل رومية تقدر بأكثر من مائتي ألف مقاتل، كان على الخليفة تعويض النقص الحادث في صفوف المسلمين بالجبهة العراقية وكان أبو بكر قد جعل عليها المثنى بن حارثة خليفة لخالد بن الوليد لمقدرة المثنى على القيادة بجانب خبرته العسكرية والواقعية بتلك البلاد؛ لأنه من قبيلة ربيعة، أجراً للناس على الفرس..

وكان خروج خالد من العراق فرصة ذهبية للفرس الذين تنفسوا الصعداء بعد خروج خالد وفرحوا فرحاً عظيماً وقويت عزائمهم ضد المسلمين، وخلال هذه الفترة حدثت فتنة دامية داخل البلاط الملكي الفارسي بعد مقتل كسرى شهر براز وتولي أخته دخت والتي كانت ضعيفة فخلعت ثم تولى سابور ابن شهر براز وكان هو الآخر ضعيفاً فتآمرت عليه بنت عمه آزر ميدخت وقتلته هو وقائده فرخراز بن مبدوان وهو والد القائد الشهير رستم الذي سارع وكان حاكم خراسان وتحالف مع بوران بنت كسرى ودخلا المدائن وقتلوا آزر ميدخت، وعين رستم بوران على ملك فارس.

لم يفتر المثنى بن حارثة القائد الجديد للجبهة العراقية بنزاعات البلاط الدامية في المدائن وشعر أن حجم جيوش المسلمين تسعة آلاف فقط في وضع حرج على الجبهة العراقية، خاصة أنهم متناثرون في نقاط متفرقة مما يسهل على عدوهم المتربص الوثوب عليهم والفتك بهم، فقرر المثنى التحرك سريعاً والتوجه للمدينة لشرح خطورة الموقف وطلب إمدادات سريعة وكبيرة للحفاظ على مكاسب المسلمين.

فوصل المثنى المدينة والخليفة أبو بكر في النزاع الأخير ولكنه استطاع أن يجتمع مع أبي بكر وشرح له خطورة موقف المسلمين في العراق وضرورة إرسال إمدادات للمسلمين، وما لبث أبو بكر حتى مات من غد بعدما أوصى الخليفة بعده عمر بن الخطاب بندب الناس للجهاد ضد الفرس، وبالفعل من أول يوم لولاية الفاروق جمع الناس في المسجد وقام فيهم خطيباً ومعه المثنى بن حارثة يندب الناس للجهاد ضد الفرس فتلكأ الناس لكرههم لحرب الفرس المشهورين باليأس والشدة.

وحاول المثنى أن يبين لهم ضعف أمر الفرس وخطأ الصورة الكاذبة المرسومة في أذهان الناس عن الفرس وظل عدة أيام يدعو الناس للجهاد ولكن الاستجابة كانت معدومة حتى بادر رجل من عامة الصحابة بالتطوع وهو أبو عبيد الثقفي ثم قام آخر وهو سعيد بن عبيد الأنصاري ثم آخر وآخر حتى بلغ عددهم في النهاية ألف رجل لا غير، وأثر هذا الموقف في نفسية الفاروق وحزن لضعف استجابة الصحابة للجهاد في سبيل الله، لذلك عندما اجتمع عنده المتطوعون للقتال بقي أن يؤمر عليهم أميراً للجهاد فاختر لتلك المهمة الخطيرة والحساسة أول الناس انتداباً للجهاد وهو أبا عبيد الثقفي ولما قيل له: هلا اخترت أحداً من كبار الصحابة أو السابقين رفض بشدة وقال وهو متأثر: "لا والله لا أفعل يا أصحاب النبي لا أندبكم وينتدب غيركم فأؤمركم عليهم والله لا أوامر عليكم إلا أولهم انتداباً" ثم أمر أبا عبيد الثقفي ووصاه بوصايا نافعة، ولا شك أن أبا عبيد كان من الأبطال الشجعان المشهورين بذلك، ولكن القيادة تحتاج بجانب الشجاعة إلى الخبرة الحربية والدهاء والصبر والمناورة وهذه أمور لم تكن متوفرة في أبي عبيد البطل الشجاع، لذلك عد ذلك من هفوات الفاروق وما أقلها وإن كانت هذه الهفوة ثمنها باهظاً جداً.

معارك إسلامية

انطلق المثنى إلى العراق ليلحق بجنوده لرفع معنوياتهم أمام عدوهم ولم ينتظر حتى يتم المتطوعون استعدادهم للسير فوصل المثنى إلى الحيرة في 5 رجب 13هـ، وفي هذه الأثناء كان أهل فارس قد اصططحوا فيما بينهم على تولية يزدجرد من ولد كسرى وهو ابن خمسة عشر سنة على أن يكون مشيره وأستاذه القائد الكبير رستم الذي فوض إليه أهل فارس الأمر لمدة عشر سنوات يكون فيها الحاكم الفعلي لفارس، فأعد رستم خطة شريرة للقضاء على الوجود الإسلامي في العراق تقوم على إشعال الثورات وتأليب رعايا الدولة الفارسية الذين دخلوا في ذمة المسلمين وعهدهم لخلع هذه الأمة ونقض عهد المسلمين في كل مكان، وحتى يشعل رستم حماس الثائرين قال لهم: "إن الأمير عليكم في العراق هو أول من يعلن الثورة على المسلمين في السواد".

ولكن هذه الخطط الشريرة لم تكن لتغيب عن ذهن القائد العسكري الفذ المثنى بن الحارثة الذي أدرك خطورة الموقف وقرر الانسحاب من كل المناطق الخاضعة للمسلمين وعن العراق كله والانحياز إلى حدود الجزيرة العربية وكان المثنى لا تهمه الأرض بقدر ما تهمه أرواح جنوده فنفذ الانسحاب بسرعة ولم يخسر رجلاً واحداً وتآلم رستم جداً لفشل خطته التي رسمها لإبادة المسلمين بفضل الله ثم ذكاء المثنى رحمه الله.

قدم المسلمون المتطوعون للجهاد ضد الفرس بقيادة أبي عبيد الثقفي الذي اطلع على خطة الانسحاب التي قام بها المثنى بن حارثة فأعجبته وأقرها، وأما على الجبهة الفارسية فقد طاش سهمها إذ تمكن المسلمون من الانسحاب دون أن ينال أحد منهم أي أذى، وكان جابان كبير القادة المكلفين بتصفية المعسكر الإسلامي وكان يمني نفسه بأن يكون أمير العراق؛ لأنه أول من ثار على المسلمين عملاً بوعده رستم، ولما لم يقدر على تنفيذ خططه الشريرة بالفتك بالمسلمين شجعه حزنه وطمعه في الرياسة على الإقدام على مطاردة المسلمين حتى الصحراء لتدمير جيشهم الصغير الذي لا يزيد على عشرة آلاف بعد انضمام المدد إليهم ومما شجعه على ذلك أيضاً موافقة الأمير فرسي المغرور على فكرة المطاردة تلك، فأرسل إلى رستم يخبرانه بعزمهم وفي نفس الوقت يطلبان إمدادات جديدة لتكون سنداً لهم في تصفية القوات المسلمة بصحراء خفان.

نقل سلاح الاستخبارات الإسلامية الخبر للقائد أبي عبيد وذكروا ضخامة الجيش الفارسي وذلك قبل أن يشرع هذا الجيش بالتحرك إلى المسلمين وعندها قرر أبو عبيد ومعه المثنى مباداة الفرس قبل أن يقبلوا عليهم، وكان جابان واثقاً من النصر فجيّشه يجاوز المائة ألف وسلاحهم جيد مما جعله يسير بسرعة ولكن في نفس الوقت بلا حذر، وتحرك أبو عبيد بجيشه الصغير وعبأ جيداً وسارع للصدام مع الفرس ليأخذ زمام الهجوم من يد القائد الفارسي جابان الذي وصل إلى منطقة النمارق وعسكر بها وعبأ جنده فلم يمهل أبو عبيد ومن معه، فوقع المسلمون كالصاعقة على جيش الفرس الذين أخذتهم الدهشة والذهول من هجوم المسلمين السريع والخاطف عليهم فحاولوا في بادئ الأمر مقاومة الصعقة ولكن ولات حين مناص، فقد كان المسلمون في هجومهم يتهافون على الموت طمعاً في الشهادة، فلم يطق الفرس ذلك وأخذت صفوفهم في التصدع.

وحاول القائد جابان الانسحاب بشكل منظم ولكن الفوضى عمت جيشه بصورة كبيرة أدت في النهاية لوقوع جابان نفسه في الأسر عندما تخلص عنه حراسه وفروا عنه، فأسره رجالان من المسلمين، وكان جابان شيخاً متقدماً في السن فزهدا المسلمان في قتله، واتفقا معه وهم لا يعرفانه على أخذ الفدية، وكان جابان يخاف القتل جداً فاشتراط عليهما أن يعطيهما الجزية في خيمة القائد؛ لأنه يعرف أن العرب مشهورون بالوفاء بالعهد فوافقاه على شرطه، فلما دخلوا على أبي عبيد وأخبروه بالقصة قال: "أوفيا للرجل بعهده بعد دفع ما عليه". وكان أبو عبيد لا يعرف جابان وقبل أن يخرج جابان من خيمة أبي عبيد، جاء قوم من ربيعة فعرفوا جابان وقالوا لأبي عبيد: "هذا الملك جابان الذي لقينا بهذا الجمع"، وأشاروا بقتله فقام أحد المسلمين اللذان أسر جابان وقال: "أسرته أنا وصاحبي من غير أمان"، وهم بقتله فمنعه أبو عبيد من ذلك وقال لهم: "لا تفعل ما ترونني فاعلاً معاشر ربيعة أيؤمنه صاحبكم. وكان المسلم الآخر من قبيلة ربيعة. وأقتله أنا؟ معاذ الله من ذلك إني أخاف أن أقتله وقد آمنه رجل من المسلمين، المسلمون في التواد والتناصر كالجسد ما لزم بعضهم فقد لزمهم كلهم"، فقالوا: "إنه الملك"، فقال أبو عبيد: "لا أغدر".

موقعة النهروان

كانت هذه الموقعة بين علي رضي الله عنه في جيشه الكبير الذي يقرب من سبعين ألفاً. والخوارج في جيشهم الصغير الذي لا يزيد على أربعة آلاف.. وكان علي في موقفه من الخوارج في هذه الموقعة يمثل القيادة الحكيمة التي تنأى عن البغي والظلم، وتعمل بكل وسيلة على حقن الدماء. ذلك بأنه فتح أمامهم باباً للخلاص من الحرب قبل أن يبدأهم بالقتال فطلب إليهم أن يدفعوا إليه هؤلاء القتلة الذين قتلوا عبد الله بن خباب ويقرؤا بطن امرأته، وقتلوا نسوة طيء. ثم قتلوا الرسول الذي أرسله إليهم ليقتص منهم فهو يريد قتال المسلمين، ولكنهم أجابوه إجابة باغية متحديّة فقالوا: **كُلُّنَا قَتْلَهُمْ. وَكُلُّنَا يَسْتَحِلُّ دِمَاءَكُمْ وَدِمَاءَهُمْ..** ومع ذلك لم يتورط علي في حربهم ففتح لهم باب الخلاص والنجاة مرة ثانية. وأمر بأن تنصب راية. ثم قال: من تقدم إلى هذه الراية فهو آمن. ومن دخل الكوفة فهو آمن. ومن رجع إلى المدائن فهو آمن. فانصرف منهم ما يقرب من نصف العدد ووقف النصف الآخر فكان لعلي معهم موقف رهيب في يوم عصيب وعرف هذا اليوم في التاريخ بيوم النهروان -وهو اسم المكان الذي وقع فيه القتال- ، وفي هذا اليوم هزم الخوارج هزيمة قاضية لم تبق منهم باقية. وقد هلكوا جميعاً في ساعة واحدة وهذه عاقبة الحماسة المقرون بالفور المجرد عن العلم والفقه والعقل الرزين.

وفي قصة هؤلاء الخوارج آية عظيمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال في "ذي الخويصرة" وهو أحد المنافقين كما رواه البخاري ومسلم "إن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية.. آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة ومثل البضعة تدرر، ويخرجون على حين فرقة من الناس". قال أبو سعيد: فأشهد أني سمعت هذا الحديث من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشهد أن علي بن أبي طالب قاتلهم وأنا معه فأمر بذلك الرجل فالتمس فأتي به حتى نظرت إليه على نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي نعتته.

موقعة الجمل

بعدما قُتل عثمان، بايع الصحابة علياً يوم الجمعة سنة خمس وثلاثين. وعندما جاء المهاجرون والأنصار لعليّ فقالوا: "امدد يدك نبايعك". دفعهم. فعادوه ودفعهم. ثم عادوه فقال: "دعوني والتمسو غيري. واعلموا أنّي إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم. وإن تركتموني فأنا كأحدكم. ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم. وأنا لكم وزيراً خير لكم مني أميراً". ومشى إلى طلحة والزبير فعرضها عليهما فقال: "من شاء منكما بايعته". فقالا: "لا. الناس بك أرضى". وأخيراً قال لهم: "فإن أبيتم فإن بيعتي لا تكون سرّاً، ولا تكون إلا عن رضا المسلمين. ولكن أخرج إلى المسجد فمن شاء أن يبايعني فليبايعني". فبايعه جمع من الصحابة ممن كان في المدينة ومنهم طلحة والزبير. ورغم أكثر الصحابة كانوا قد تفرّقوا بالأمصار ليعلموا الناس، فغياب البعض لا يطعن في خلافته بأي حال.

وعلى أية حال فلو كانت نظرية النص والتعيين -التي يزعمها الإمامية- ثابتة ومعروفة لدى المسلمين، لم يكن يجوز للإمام أن يدفع الثوار وينتظر كلمة المهاجرين والأنصار متخلياً عن فرض من فروض الله. كما لا يجوز له أن يقول: "أنا لكم وزيراً خير لكم مني أميراً" كما هو ثابت من أوثق كتبهم: نهج البلاغة!

لما مضت أربعة أشهر على بيعة علي، خرج كل من طلحة والزبير من المدينة بقصد العمرة، وكذلك خرج عبد الله بن عامر من البصرة ويعلي بن مئنة من اليمن إلى مكة في أوقات مختلفة. واجتمع طلحة والزبير ويعلي وعبد الله بن عامر وعائشة -رضي الله عنهم أجمعين- بعد نظر طويل على الشخوص إلى البصرة من أجل الإصلاح بين الناس حين اضطرب أمرهم بعد مقتل عثمان، وليس من أجل المطالبة بدم عثمان، ودليل ذلك حديث الحوآب. ففي أثناء الطريق إلى البصرة مر الجيش ليلاً على منطقة يقال لها الحوآب، عند مياه بني عامر، فنبحت الكلاب، فقالت: أي ماء هذا؟ قالوا: ماء الحوآب. قالت: ما أظنني إلا راجعة. فقال الزبير: بل تقدمين فيراك المسلمون فيصلح الله ذات بينهم. قالت إن رسول الله قال

معارك إسلامية

لها ذات يوم: "كيف بإحداكن تنبح عليها كلاب الحواب". وعن ابن عباس قال: قال رسول الله لنسائه: "ليت شعري أيتكن صاحبة الجمل الأديب، تخرج فتنبحها كلاب الحواب. يُقتل عن يمينها وعن يسارها قتلى كثير، ثم تنجو بعد ما كادت"، أي بعدما كادت تُقتل.

كان جيش مكة قد وصل خلال تلك الفترة إلى البصرة، فأرسل عثمان بن حنيف وهو والي البصرة من قبل علي- إليهم يستفسر عن سبب خروجهم فكان الجواب: "إن الغوغاء من أهل الأمصار ونزاع القبائل غزو حرم رسول الله، وأحدثوا فيه الأحداث، وأوو فيه المحدثين، واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة رسوله، مع ما نالوا من قتل أمير المسلمين بلا ترة ولا عذر، فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه، وانتهبوا المال الحرام، وأحلوا البلد الحرام والشهر الحرام. فخرجت في المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم، وما فيه الناس وراءنا، وما ينبغي لهم أن يأتوا في إصلاح هذا". وقرأت ﴿لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس﴾ (النساء، الآية 114).

لكن الأمور ساءت وخرجت عن حد السيطرة لعدة أمور، فنشب قتال بين جيش طلحة والزبير وبين قتلة عثمان- الذين كانوا من البصرة- وعشائهم التي دافعت عنهم، وانهزم قتلة عثمان شر هزيمة، وسلمتهم عشائهم كلهم إلا واحدا للقصاص وكانوا حوالي 600 رجل. ولكن هذه العملية تسببت في قتل الكثير من المسلمين الذين حاولوا الدفاع عن القتلة لمجرد أنهم من عشائهم. وهنا نجد أن تأثير العصبية القبلية الجاهلية قد عاد يقوى عند تلك القبائل التي أسلمت في آخر عهد الرسول، ثم استقرت في الأمصار بعيدة عن مركز الدولة. وهذا هو السبب الذي دعا علياً لتأخير القصاص من قتلة عثمان، حتى تهدئ النفوس، ويوطد مركز الخلافة ويتقدم أولياء عثمان- أي معاوية وبقية بني أمية- بالدعوى عنده على معينين، فيحكم لهم بعد إقامة البينة عليهم، فلا يستطيع أحد أن يدافع عنهم إذا ثبتت التهمة.

مشارك إسلامية

وكذلك طلحة، لم يشارك بالقتال وإنما جلس في آخر الجيش يبكي على ما أصاب المسلمين، فأصابه سهمٌ غادر، فنزف حتى مات. قال الإمام الشعبي: لما قُتل طلحة ورآه علي مقتولاً، جعل - أي علي - يمسح التراب عن وجهه ويقول: عزيزٌ عليّ أبا محمد أن أراك مُجدلاً تحت نجوم السماء. ثم قال: إلى الله أشكو عجزِي و بجزِي. وبكى عليه هو وأصحابه، وقال: يا ليتني متُّ قبل هذا اليوم بعشرين سنة". وهذه أم المؤمنين عائشة، تقول: "إنما أريد أن يحجرب بين الناس مكاني، ولم أحسب أن يكون بين الناس قتال، ولو علمت ذلك لم أقف ذلك الموقف أبداً.

ثم انظر ما كان من حزن علي على طلحة والزبير وانظر إلى قوله: فينا والله في أهل بدر نزلت هذه الآية: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ (الحجر، الآية 47). وسئل علي عن أهل الجمل قيل: "أمشركون هم؟". قال: من الشرك فرو. قيل: أمنافقون هم؟. قال: إن المنافقين لا يذكرهم الله إلا قليلاً. قيل: فما هم؟. قال: إخواننا بغو علينا، فقاتلونا فقاتلناهم. وقد فاءوا، وقد قبلنا منهم". وعلى أية حال فالعدد الحقيقي لقتلى معركة الجمل كان ضئيلاً جداً، حيث كان كل فريق يدافع عن نفسه ليس إلا.

معركة صفين

بعد وقعة الجمل استعد علي بن أبي طالب لمحاربة معاوية، وتحرك بجيشه الكبير الذي يبلغ عدده 100 ألف إلى صفين، وهو سهل يقع على الجانب الغربي لنهر الفرات شمال بلدة الرقة، وفي الوقت نفسه استعد معاوية لهذه المعركة الحاسمة بجيش يقترب من جيش علي، وقبل المعركة دارت مراسلات بينهما بلغت أكثر من شهر ما بين أواخر شهر ذي الحجة سنة 36 هـ إلى بداية شهر المحرم 37 هـ، لكنها لم تؤد إلى نتيجة، وفي غرة صفر من عام 37 هـ اشتعلت الحرب بين الفريقين، وظلت 10 أيام متصلة قتل خلالها الآلاف من المسلمين، واشتد الخطب على الفريقين، ووقعت الخسائر الضخمة في جانب جيش معاوية، وأصبحت هزيمتهم قاب قوسين أو أدنى، وعند ذلك رأى معاوية أن يضع حدا لهذا الأمر، فطلب من عمرو بن العاص الرأي والمشورة؛ حتى يمكن الإبقاء على البقية من أبطال الإسلام الذين هزموا فارس والروم فأشار عمرو بطلب التحكيم.

رفع المصاحف:

أصدر معاوية إلى كبار رجاله بأن يرفع كل منهم مصحفا على رمحه، إشارة إلى الاحتكام إليه، وارتفعت صيحة في جيشه تقول: كتاب الله بيننا وبينكم، مَنْ لثغور الشام بعد أهل الشام؟ وَمَنْ لثغور العراق بعد أهل العراق؟ ومن لجهاد الروم؟ ومن للترك؟ ومن للكفار؟ وُرفِع في جيش معاوية نحو 500 مصحف.

توقفت الحرب، وارتضى الطرفان أن يعودا إلى الحكمة وتحكيم القرآن بينهما، وأناب كل واحد منهما شخصا ينيب عنه، ويتفاوض باسمه في القضايا محل الخلاف؛ فأناب علي أبا موسى الأشعري، وأناب معاوية عمرو بن العاص، وعقد لذلك وثيقة كُتبت في يوم الأربعاء الموافق 13 من صفر سنة 37 هـ / 1 من أغسطس 657م عُرفت بوثيقة التحكيم.

معارك إسلامية

وجعلت الوثيقة شهر رمضان من سنة 37 هـ أقصى مدة لإعلان قرار التحكيم، إلا إذا رأى الحكمان مد المدّة، وفي دومة الجندل اجتمع الحكمان، وبعد مباحثات طويلة وصلا إلى نتيجة ظنا أنها أفضل الحلول، وهي عزل علي ابن أبي طالب من الخلافة، ورد الأمر إلى الأمة تختار من تشاء على أن تبقى البلاد تحت المتخاصمين في يديهما؛ فتبقى البلاد التي تحت حكم علي، وهي الدولة الإسلامية عدا الشام في يده، ويتصرف معاوية في حكم الشام التي تحت يديه.

رفض الإمام علي بن أبي طالب هذه النتيجة؛ لأن الخلاف لم يكن قائما على منصب الخلافة، وإنما على إقامة الحد على قتلة عثمان، وعلىبيعة معاوية لعلي بن أبي طالب.. وتطورت الأحداث بعد ذلك، وانقسم جيش علي على نفسه، وظهرت فرقة الخوارج الذين انشقوا عليه، واضطر علي لمحاربتهم؛ مما أضعف جبهته، واستنفد كثيرا من جهده، وكانت نهايته على يد واحد من الخوارج؛ فاستشهد في 17 من رمضان سنة 40 هـ / 26 من يناير سنة 661.

معركة كربلاء

معركة كربلاء وتسمى أيضاً واقعة الطف هي ملحمة وقعت على ثلاثة أيام وختمت في 10 محرم سنة 61 للهجرة والذي يوافق 12 أكتوبر 680م، وكانت بين الحسين بن علي بن أبي طالب ابن بنت نبي الإسلام، محمد بن عبد الله، الذي أصبح المسلمون يطلقون عليه لقب "سيد شباب أهل الجنة" بعد انتهاء المعركة، ومعه أهل بيته وأصحابه، وجيش تابع ليزيد بن معاوية.

تعتبر واقعة الطف من أكثر المعارك جدلاً في التاريخ الإسلامي فقد كان لنتائج وتفاصيل المعركة آثار سياسية ونفسية وعقائدية لا تزال موضع جدل إلى الفترة المعاصرة، حيث تعتبر هذه المعركة أبرز حادثة من بين سلسلة من الوقائع التي كان لها دور محوري في صياغة طبيعة العلاقة بين السنة والشيعة عبر التاريخ وأصبحت معركة كربلاء وتفاصيلها الدقيقة رمزا للشيعة ومن أهم مرتكزاتهم الثقافية وأصبح يوم 10 محرم أو يوم عاشوراء، يوم وقوع المعركة، رمزاً من قبل الشيعة "لثورة المظلوم على الظالم ويوم انتصار الدم على السيف".

رغم قلة أهمية هذه المعركة من الناحية العسكرية حيث إعتبرها البعض من محاولة تمرد فاشلة قام بها الحسين إلا أن هذه المعركة تركت أثراً سياسية وفكرية ودينية هامة. حيث أصبح شعار "يا لثارات الحسين" عاملاً مركزياً في تبلور الثقافة الشيعية وأصبحت المعركة وتفاصيلها ونتائجها تمثل قيمة روحانية ذات معاني كبيرة لدى الشيعة الذين يعتبرون معركة كربلاء ثورة سياسية ضد الظلم. بينما أصبح مدفن الحسين في كربلاء مكاناً مقدساً لدى الشيعة يزوره مؤمنوهم، مع ما يرافق ذلك من ترديد لأدعية خاصة أثناء كل زيارة لقبره. أدى مقتل الحسين إلى نشوء سلسلة من المؤلفات الدينية والخطب والوعظ والأدعية الخاصة التي لها علاقة بحادثة مقتله وألفت عشرات المؤلفات لوصف حادثة مقتله.

معارك إسلامية

يعتبر الشيعة معركة كربلاء قصة تحمل معاني كثيرة "كالتضحية والحق والحرية" وكان لرموز هذه الواقعة حسب الشيعة دور في الثورة الإيرانية وتعبئة الشعب الإيراني بروح التصدي لنظام الشاه، وخاصة في المظاهرات المليونية التي خرجت في طهران والمدن الإيرانية المختلفة أيام عاشوراء والتي أجبرت الشاه السابق محمد رضا بهلوي على الفرار من إيران، ومهدت السبيل أمام إقامة النظام الإسلامي في إيران وكان لهذه الحادثة أيضا، بنظر الشيعة، دور في المقاومة الإسلامية في وجه الاحتلال الإسرائيلي في جنوب لبنان.

جنود الخلاف بين السنة والشيعة:

بعد وفاة النبي محمد سنة 632م في المدينة المنورة كانت هناك فترة من الغموض والتساؤل حول كيفية اختيار خليفة له يقود المجتمع الإسلامي حديث النشوء. حدث الكثير من المناقشات حول تحديد الطريقة الواجب اتباعها في اختيار الحاكم حيث لم يكن هنالك حسب اعتقاد البعض أية وثيقة أو دستور لتحديد نظام الحكم وإنما بعض القواعد العامة فقط حول علاقة الحاكم بالمحكوم. بينما يعتقد البعض الآخر أنه كانت هناك نصوص واضحة حول ما اعتبروه أحقية علي ابن أبي طالب بخلافة الرسول محمد.

يرى معظم علماء الدين المسلمين أن حادثة سقيفة بني ساعدة تشير إلى أن من حق المسلمين تحديد ما يصلح لهم في كل عصر ضمن إطار القواعد الرئيسية للإسلام. توزعت الآراء حول اختيار الحاكم في سقيفة بني ساعدة إلى ثلاثة تيارات رئيسية: رأي يرى بقاء الحكم في قريش مستنادا إلى أبو بكر الذي قال: "إن العرب لن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش هم أوسط العرب نسبا ودارا". وكان هذا مخالفا لرأي أهل المدينة المنورة الذين استقبلوا الدعوة الإسلامية واتخذ فيها المسلمون من مكة ملاذا ونقطة انطلاق، وكان هناك رأي ثالث بأن يكون من الأنصار أمير ومن المهاجرين أمير آخر ودار النقاش تكون في سقيفة بني ساعدة. وقع الاختيار في النهاية على أبي بكر ليتولى الخلافة فيما

على أساس أن النبي محمد اختاره لإمامة جموع المسلمين حين أقعده المرض، مع وجود رواية تاريخية أخرى تقول بأن أبا بكر كان ضمن جيش أسامة ورجع عندما أرسلت له ابنته السيدة عائشة مبلغة إياه بسوء الحالة المرضية للنبي فرجع وتقدم للصلاة فلما علم النبي في تقدم أبي بكر جاء واستأنف الصلاة من بدايتها ولم يبن على صلاة أبي بكر، ولم يكن في الأمر انفراداً في اتخاذ القرار وبينما اعتبرت العملية التي تمت تحت تلك السقيفة في نظر السنة أكثر ديمقراطية في ذلك الوقت من العديد من أنظمة الحكم الوراثية التي كانت ولا تزال لحد هذا اليوم شائعة في بعض مناطق العالم. اعتبر الشيعة غياب ركن هام في المجتمع الإسلامي وهو الهاشميين ينقص من اكتمالها حيث غاب عنها علي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب وباقي أبناء عبد المطلب حيثوا كانوا مشغولين بتفسير الرسول وتكفينه واعترض على نتائجها بعض الصحابة أمثال أبو ذر الغفاري وعمار بن ياسر والمقداد بن عمرو وأسامة بن زيد وغيرهم.

من جهة أخرى يعتقد الشيعة أن بعض الحوادث التاريخية مثل غدير خم وحادثة الكساء وائتمان الرسول لعلي على شؤون المدينة أثناء غزوة تبوك وبعض النصوص في القرآن والحديث النبوي مثل حديث السفينة وحديث الثقلين وحديث دعوة العشيرة وحديث المنزلة فيها إشارة واضحة إلى حق علي بن أبي طالب

بخلافة النبي محمد، على الرغم من مبايعة علي لأبو بكر ليكون الخليفة رغبة منه في تفادي حدوث صدع في صفوف المسلمين، بينما يذهب البعض الآخر إلى التشكيك أصلاً في مبايعة علي لأبي بكر استناداً إلى بعض الروايات التي رواها ابن كثير وابن الأثير والطبري عن امتناع علي بن أبي طالب وبعض من الصحابة في دار فاطمة الزهراء عن البيعة لأبي بكر.

معارك إسلامية

بعد مقتل عثمان بن عفان الذي كان من بني أمية أخذ معاوية بن أبي سفيان الذي كان من بني أمية أيضا مهمة الثأر لعثمان بسبب ما اعتبره معاوية عدم جدية علي بن أبي طالب في معاقبة قتلة عثمان واعتبر معاوية علي بصورة غير مباشرة مسؤولا عن حوادث الاضطراب الداخلي التي أدت إلى مقتل عثمان. وتفاقم الخلاف بين علي ومعاوية مفضيا إلى صراع مسلح بينهما في معركة صفين ولكن دهاء معاوية في المعركة أدى إلى حدوث انشقاقات في صفوف قوات علي بن أبي طالب. وأطلقت تسمية الخوارج على الطائفة التي كانت من شيعة علي بن أبي طالب ثم فارقت وخرجت عليه وقاتلته. استغل معاوية ضعف القيادة المركزية لخلافة علي وقام بصورة غير مركزية ببسط نفوذه على سوريا ومصر وبعد اغتيال علي في عام 661م كان معاوية في موضع قوة أفضل من ابن الخليفة الراحل، الحسن بن علي بن أبي طالب الذي فضل أن يعيش في المدينة المنورة لأسباب لا تزال موضع نقاش إلى الآن. فحسب السنة قام الحسن بمبايعة معاوية وحسب الشيعة فإن المبايعة تمت بسبب تقديرات الحسن لموقف أهل البيت الذي كان في وضع لا يحسد عليه بعد اغتيال علي بن أبي طالب ويعتبر البعض إن الحسن بن علي تنازل عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان على شرط أن تعود طريقة الخلافة بعد موته إلى نظام الشورى بين المسلمين. ويعتبر البعض أن تعيين يزيد بالوراثة خليفة على المسلمين بعد وفاة معاوية بن أبي سفيان كان نقطة تحول في التاريخ الإسلامي حيث شكل بداية لسلسلة طويلة من الحكام الذين يستولون على السلطة بالقوة ليورثونها فيما بعد لأبنائهم وأحفادهم ولا يتنازلون عنها إلا تحت ضغط ثورات شعبية أو انقلابات عسكرية أو حركات تمرد مسلحة.

قبل المعركة:

استنادا لبعض المصادر التاريخية فإن الخلافة استقرت لمعاوية بن أبي سفيان بعد تنازل الحسن بن علي بن أبي طالب عن الخلافة وقيامه مع أخوه الحسين بمبايعة معاوية. ويعتقد البعض أن مجموعة من العوامل أدت إلى تنازل الحسن لمعاوية منها:

- تقديرات الحسن لموقف أهل البيت الذي كان في موضع لا يحسد عليه بعد اغتيال علي بن أبي طالب.

- محاولة لحقن الدماء وتوحيد الكلمة بعد سلسلة من الصراعات الداخلية بين المسلمين ابتداء من فتنة مقتل عثمان إلى معركة الجمل ومعركة صفين وقد أثنى الكثير على هذه المبادرة وسمي العام الذي تم فيه الصلح "عام الجماعة"

- مبادرة الصلح والتنازل كانت مشروطة بعودة طريقة الخلافة إلى نظام الشورى بعد موت معاوية.

أعقب هذا الصلح فترة من العلاقات الهادئة بين أعداء الأمس في معركة صفين ولما مات الحسن ظل أخوه الحسين ملتزماً ببنود الصلح بل إن الحسين اشترك في الجيش الذي بعثه معاوية لغزو القسطنطينية بقيادة ابنه "يزيد" في سنة 49 هـ.

عندما قام معاوية وهو على قيد الحياة بترشيح ابنه يزيد بن معاوية للخلافة من بعده قوبل هذا القرار بردود فعل تراوحت بين الاندهاش والاستغراب إلى الشجب والاستنكار فقد كان هذا في نظر البعض نقطة تحول في التاريخ الإسلامي من خلال توريث الحكم وعدم الالتزام بنظام الشورى الذي كان متبعاً في اختيار الخلفاء السابقين وكان العديد من كبار الصحابة لا يزالون على قيد الحياة واعتبر البعض اختيار يزيد للخلافة يستند على عامل توريث الحكم فقط وليس على خبرات المرشح الدينية والفقهية. وبدأت بوادر تيار معارض لقرار معاوية بتوريث الحكم تركز بالحسين بن علي، وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر بن الخطاب. عند وفاة معاوية بن أبي سفيان أصبح ابنه يزيد بن معاوية خليفة ولكن تنصيبه جوبه بمعارضة من قبل بعض المسلمين وكانت خلافة يزيد التي دامت ثلاث سنوات وصلة حروب متصلة، ففي عهده حدثت معركة كربلاء ثم حدثت ثورة في المدينة انتهت بوقعة الحرة ونهبت المدينة. كما سار مسلم بن

معارك إسلامية

عقبه المري إلى مكة لقتال عبد الله بن الزبير وأصببت الكعبة بالمنجنيقات. حاول يزيد بطريقة أو بأخرى إضفاء الشرعية على تنصيبه كخليفة فقام بإرسال رسالة إلى والي المدينة المنورة يطلب فيها أخذ البيعة من الحسين الذي كان من المعارضين لخلافة يزيد إلا أن الحسين رفض أن يبايع يزيد وغادر المدينة سراً إلى مكة واعتصم بها، منتظراً ما تسفر عنه الأحداث.

وصلت أنباء رفض الحسين مبايعة يزيد واعتصامه في مكة إلى الكوفة التي كانت أحد معاقل القوة لشيعة علي بن أبي طالب وبرزت تيارات في الكوفة تؤمن أن الفرصة قد حانت لأن يتولى الخلافة الحسين بن علي واتفقوا على أن يكتبوا للحسين يحثونه على القدوم إليهم، ليسلموا له الأمر، ويبايعوه بالخلافة. بعد تلقيه العديد من الرسائل من أهل الكوفة قرر الحسين أن يستطلع الأمر فقام بإرسال ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب ليكشف له حقيقة الأمر. عندما وصل مسلم إلى الكوفة شعر بجو من التأييد لفكرة خلافة الحسين بن علي ومعارضة خلافة يزيد بن معاوية وحسب بعض المصادر الشيعية فإن 18,000 شخص بايعوا الحسين ليكون الخليفة وقام مسلم بإرسال رسالة إلى الحسين يعجل فيها قدومه. حسب ما تذكر المصادر التاريخية، إن مجيء آل البيت بزعامة الحسين كان بدعوة من أهل الكوفة. قام أصحاب واقارب واتباع الحسين بأسداء النصيحة له بعدم الذهاب إلى ولاية الكوفة ومنهم عبد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب وأبو سعيد الخدري وعمرة بنت عبد الرحمن، حيث حذر أبو سعيد الخدري من إعطاء الخصم الذريعة بالخروج عن الطاعة لولي الأمر مانصه: "غلبني الحسين على الخروج وقد قلت له، اتق الله والزم بيتك، ولا تخرج على إمامك" استناداً على تاريخ الإسلام للذهبي. وكذلك عمرة بنت عبد الرحمن، نفس المصدر. ولكن الحسين واستناداً إلى الطبري "كان مصراً إصراراً كبيراً على الخروج"، كما أسدى له ابن عباس النصيح برأي آخر مهم، فإن أبيت إلا أن تخرج فسر إلى اليمن فإن بها حصوناً وشعاباً ولأبيك بها أنصار.

لكن هذا الخبر وصل بسرعة إلى الخليفة الأموي الجديد الذي قام على الفور بعزل والي الكوفة النعمان بن بشير بتهمة تساهله مع الإضطرابات التي تهدد الدولة الأموية وقام الخليفة يزيد بتنصيب وال آخر كان أكثر حزمًا اسمه عبيد الله بن زياد الذي وحسب المصادر الشيعية قام بتهديد رؤساء العشائر والقبائل في منطقة الكوفة بإعطائهم خيارين إما بسحب دعمهم للحسين أو انتظار قدوم جيش الدولة الأموية ليبيدهم على بكرة أبيهم. وكان تهديد الوالي الجديد فعالاً فبدأ الناس يتفرقون عن مبعوث الحسين، مسلم بن عقيل شيئاً فشيئاً لينتهي الأمر بقتله واختلقت المصادر في طريقة قتله فبعضها تحدث عن إلقائه من أعلى قصر الإمارة وبعضها الآخر عن سحله في الأسواق وأخرى عن ضرب عنقه. بغض النظر عن هذه الروايات فإن هناك إجماع على مقتله وعدم معرفة الحسين بمقتله عند خروجه من مكة إلى الكوفة بناءً على الرسالة القديمة التي استلمها قبل تغير موازين القوى في الكوفة.

هناك رواية مشهورة لا يمكن التحقق من صحتها تقول بأن الحسين وهو في طريقه إلى الكوفة لقي الشاعر الفرزدق وقال الفرزدق للحسين "قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أمية" ولما وصل الحسين كربلاء في طريقه إلى الكوفة أقبل عليه مبعوث من والي الكوفة عبيد الله بن زياد وكان اسمه الحر بن يزيد فحذره الحر بن يزيد من أن أي قتال مع الجيش الأموي سيكون انتحاراً ولكن الحسين وحسب المصادر الشيعية جاوبه بهذا البيت من الشعر:

سأمضي وما الموت عار على الفتى	إذا ما نوى حقاً وجاهد مسلماً
وآسى الرجال الصالحين بنفسه	وفارق خوفاً أن يعيش ويرغماً

معارك إسلامية

فيما تشير روايات أخرى إلى أن الحسين لما علم بمقتل مسلم بن عقيل وتخاذل الكوفيين عن حمايته ونصرتة، قرر العودة إلى مكة، لكن إخوة مسلم بن عقيل أصرّوا على المضي قدماً للأخذ بثأره، فلم يجد الحسين بداً من مطاوعتهم واستناداً إلى الطبري فإن أبناء مسلم بن عقيل قالوا: "والله لا نرجع حتى نصيب بثأرنا أو نقتل"، ثم قال الحسين: "لا خير في الحياة بعدكم" فصار.

وقائع المعركة:

استمر الحسين وقواته بالمسير إلى أن اعترضهم الجيش الأموي في صحراء كانت تسمى الطف واتجه نحو الحسين جيش قوامه 4000 مقاتل يقوده عمر بن سعد الذي كان ابن سعد بن أبي وقاص ووصل هذا الجيش الأموي بالقرب من خيام الحسين وأتباعه في يوم الخميس التاسع من شهر محرم. في اليوم التالي عبأ عمر بن سعد رجاله وفرسانه فوضع على ميمنة الجيش عمر بن الحجاج وعلى ميسرته شمر بن ذي الجوشن وعلى الخيل عروة بن قيس وكانت قوات الحسين تتألف من 32 فارساً و 40 راجلاً من المشاة وأعطى رايته أخاه العباس بن علي وقبل أن تبدأ المعركة لجأ جيش ابن زياد إلى منع الماء عن الحسين وصحبه، فلبثوا أياماً يعانون العطش.

بدأ رماة الجيش الأموي يمطرون الحسين وأصحابه بوابل من السهام وأصيب الكثير من أصحاب الحسين ثم اشتد القتال ودارت رحى الحرب وغطى الغبار أرجاء الميدان واستمر القتال ساعة من النهار ولما انجلت الغبرة كان هناك خمسين صريعاً من أصحاب الحسين واستمرت رحى الحرب تدور في ميدان كربلاء وأصحاب الحسين يتساقطون الواحد تلو الآخر واستمر الهجوم والزحف نحو من بقي مع الحسين وأحاطوا بهم من جهات متعددة وتم حرق الخيام فراح من بقي من أصحاب الحسين وأهل بيته ينزلون جيش عمر بن سعد ويتساقطون الواحد تلو الآخر، ومنهم: ولده علي الأكبر، أخوته، عبد الله، عثمان، جعفر، محمد، أبناء أخيه الحسن أبو بكر القاسم، الحسن المثنى، ابن أخته زينب، عون بن عبد الله بن جعفر الطيار، آل عقيل: عبد الله بن مسلم، عبد الرحمن بن عقيل، جعفر بن عقيل، محمد بن مسلم بن عقيل، عبد الله بن عقيل.

بدأت اللحظات الأخيرة من المعركة عندما ركب الحسين جواده يتقدمه أخوه العباس بن علي بن أبي طالب حامل اللواء. إلا أن العباس ذهب إلى بحر العلقمي وهو جزء من نهر الفرات ليأخذ الماء إلى الحسين وأصحابه ولكن العباس لم يستطع أن يشرب شربة ماء واحدة إثارة لأخوه الحسين وسرعان ما وقع صريعا من جنود العدو ولم يبق في الميدان سوى الحسين الذي أصيب بسهم فاستقر السهم في نحره، وراحت ضربات الرماح والسيوف تمطر جسده، وحسب رواية الشيعة فإن شمر بن ذي جوشن قام بفصل رأس الحسين عن جسده بضربة سيف كما وأنهم جعلوا خيلاً تسمى بخيل الأعوجي تمشي وتسير فوق جسد الحسين بن علي وكان ذلك في يوم الجمعة من عاشوراء في المحرم سنة إحدى وستين من الهجرة وله من العمر 56 سنة. ولم ينج من القتل إلا علي بن الحسين، فحفظ نسل أبيه من بعده.

بعد المعركة:

هناك الكثير من التضارب حول التفاصيل الدقيقة لوقائع المعركة وما حدث بعد المعركة ولا يوجد مصادر محايدة يمكن الاعتماد عليها ولكن هناك إجماع على أن رأس الحسين قد قطع وتم إرساله مع نساء أهل بيت الحسين إلى الشام إلى بلاط يزيد بن معاوية فبعض المصادر تشير إلى أنه أهان نساء آل بيت النبي الإسلام محمد بن عبد الله وأنهن أخذن إلى الشام مسبيات وأهنّ هناك ولكن هناك مصادر أخرى على لسان ابن تيمية تقول نصاً "إن يزيد بن معاوية لم يأمر بقتل الحسين باتفاق أهل النقل، ولكن كتب إلى ابن زياد أن يمنع عن ولاية العراق، ولما بلغ يزيد قتل الحسين أظهر التوجع على ذلك، وظهر البكاء في داره ولم يسب لهم حريماً بل أكرم بيته وأجازهم حتى ردهم إلى بلادهم"، وهذه الرواية يرفضها الشيعة وبعض من أهل السنة.

معارك إسلامية

هنالك أيضا جدل أزلي حول من كان المسؤول عن قتل الحسين، ففي نظر الشيعة والذي يوافق بعض المؤرخين من أهل السنة مثل ابن كثير في البداية والنهاية، وابن الأثير في الكامل، وابن خلدون في العبر والإمام الذهبي في تاريخ الإسلام فإن يزيد لم يكن ملتزما بمبادئ الإسلام في طريقة حياته وحكمه وكان هو المسؤول الأول عن مقتل الحسين.

أما موقف يزيد المعادي لآل البيت، فهناك واقعة تنفي ذلك طرحا لمختلف الآراء فيذكر الطبري أن يزيدا أرسل رسالة إلى عبد الله بن زياد قائلاً: "بلغني أن الحسين بن علي قد توجه إلى العراق، فضع المناظر-العيون أو المراقبون- والمسالح - جيوش تحمي الطرقات - واحترس على الظن وخذ على التهمة غير لا تقتل إلا من قاتلك". وقيل أيضا أنه اهتم بأهل بيت الحسين وحزن على استشهاده".

النقطة الأخرى المثيرة للجدل هي الموضع الذي دفن به رأس الحسين ابن علي فهناك العديد من الآراء حول هذا الموضوع منها:

- أن الرأس دفن مع الجسد في كربلاء وهو مع عليه جمهور الشيعة حيث الاعتقاد بأن الرأس عاد مع السيدة زينب إلى كربلاء بعد أربعين يوماً من مقتل أي يوم 20 صفر وهو يوم الأربعين الذي يجدد فيه الشيعة حزنهم.
- أن موضع الرأس بالشام وهو على حسب بعض الروايات التي تذكر أن الأمويين ظلوا محتفظين بالرأس يتفاخرون به أمام الزائرين حتى أتى عمر بن عبد العزيز وقرر دفن الرأس وإكرامه، كما ذكر الذهبي في الحوادث من غير وجه أن الرأس قدم به على يزيد. ومازال المقام هناك إلى اليوم يزار.

- أن موضع الرأس بعسقلان وهذا الرأي امتداد للرأي الثاني حيث لو صح الثاني من الممكن أن يصح الثالث والرابع، تروي بعض الروايات ومن أهمها المقرئزي أنه بعد دخول الصليبيين إلى دمشق واشتداد الحملات الصليبية قرر الفاطميين أن يبعدوا رأس الحسين ويدفونها في مأمن من الصليبيين وخصوصاً بعد تهديد بعض القادة الصليبيين بنبش القبر، فحملوها إلى عسقلان ودفنت هناك.
- إن موضع الرأس بالشام وخو على حسب بعض الروايات التي تذكر أن الأمويين ظلوا محتفظين بالرأس يتفاخرون به أمام الزائرين حتى أتى عمر بن عبد العزيز وقرر دفن الرأس وإكرامه، كما ذكر الذهبي في الحوادث من غير وجه "أن الرأس قدم به على يزيد". وما زال المقام هناك إلى اليوم يزار.
- أن موضع الرأس بالقاهرة وهو أيضاً امتداد للرأي السابق حيث يروي المقرئزي أن الفاطميين قرروا حمل الرأس من عسقلان إلى القاهرة وبنوا له مشهداً كبيراً وهو المشهد القائم الآن بحي الحسين بالقاهرة، وهناك رواية محلية بين المصريين ليس لما مصدر معتمد سوى حكايات الناس وكتب المتصوفة أن الرأس جاء مع زوجة الحسين شاه زنان بنت يزدجرد الملقبة في مصر بأم الغلام التي فرت من كربلاء على فرس.
- أن موضع الرأس بالبقيع بالمدينة وهو الرأي الثابت عند أغلب أهل السنة خاصة السلفيين منهم نظراً لرأي ابن تيمية حين سئل عن موضع رأس الحسين فأكد أن جميع المشاهد بالقاهرة وعسقلان والشام مكنوبة مستشهداً بروايات بعض رواة الحديث والمؤرخين مثل القرطبي والمنائوي.
- أن موضع الرأس مجهول كما في رواية قال عنها الذهبي أنها قوية الإسناد: وقال أحمد بن محمد بن يحيى بن حمزة: حدثني أبي، عن أبيه قال: أخبرني أبي حمزة بن يزيد الحضرمي قال: رأيت امرأة من أجمل النساء وأعقلهن

معارك إسلامية

يقال لها ريا حاضنة يزيد بن معاوية، يُقال: بلغت مائة سنة، قالت: دخل رجل على يزيد، فقال: يا أمير المؤمنين أبشر فقد مكنك الله من الحسين، فحين رآه خمر وجهه كأنه يشم منه رائحة، قال حمزة: فقلت لها: أقرع ثناياه بقضيب؟ قالت: إي والله، ثم قال حمزة: وقد كان حدثني بعض أهلها أنه رأى رأس الحسين مصلوباً بدمشق ثلاثة أيام، وحدثتني ريا أن الرأس مكث في خزائن السلاح حتى ولي سليمان الخلافة، فبعث إليه فجاء به وقد بقي عظماً أبيض، فجعله في سبط وكفنه ودفنه في مقابر المسلمين، فلما دخلت المسودة سألوا عن موضع الرأس فنبشوه وأخذوه، فالله أعلم ما صنع به .

من الناحية السياسية لم تكن ثورة الحسين على خلافة يزيد آخر الثورات فقد تلاها ثورة في المدينة المنورة التي انتهت بوقعة الحرة ثم ثورة عبد الله بن الزبير ولم تصبح البلاد الإسلامية تابعة بصورة كاملة لحكم الأمويين إلا في عهد عبد الملك بن مروان وبواسطة الحجاج بن يوسف الثقفي الذي استطاع القضاء على ثورة عبد الله بن الزبير في سنة 73 هـ.

وفي يوم 28 من ذي الحجة هجم جيش الشام الضخم على المدينة، ورغم
بسالة أهل المدينة إلا أنهم لم يصمدوا طويلاً في القتال ووقعت هزيمة فظيعة على
أهل المدينة قتل فيها الكثير من ساداتها وأعيانها وقتل العديد من الصحابة وأسرف
مسلم بن عقبة في سفك الدماء وفعل الفظائع ضد أهل المدينة، ولكن خبر
استباحة المدينة لمدة ثلاثة أيام والذي ذكره الطبري في تاريخه لا يصح، فسند به
عدة متهمين بالوضع والكذب والرفض.

كانت هذه المعركة سبباً لجرح لم يندمل لعشرات السنين بين عرب
الشام وعرب الحجاز وثار فتنة عصبية قبلية امتدت آثارها من العراق إلى الحجاز
حتى بلاد الأندلس، وقد أخطأ أهل المدينة في ثورتهم ضد يزيد بن معاوية وهو قد
أخطأ بدوره عندما رماهم بهذا القائد الغشوم الظلوم الجهول مسلم مسرف بن
عقبة.

